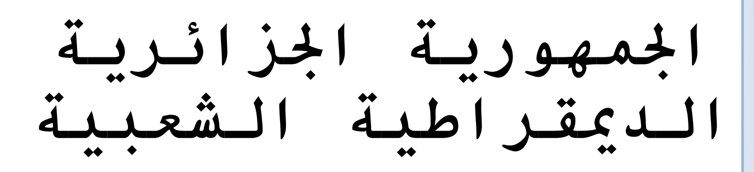




وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة منتوري - قسنطينة -
كلية الآداب و اللغات .
قسم اللغة العربية وآدابها

تجلّيات الشرق في كتابات لامارتين
فلسطين أنموذجا

مذكرة معدّة استكمالا لمتطلبات نيل شهادة الماستر

إعداد الطالبتين:

إشراف الدكتورة :

ليلى جبـــاري

✍ !!œº!!! !! !!
✍ !ƒ! !!Œ! º! !!

شعبة الأدب العربي.

والأدب **ماي 2011** المقـارن.

إهـــــــــداء

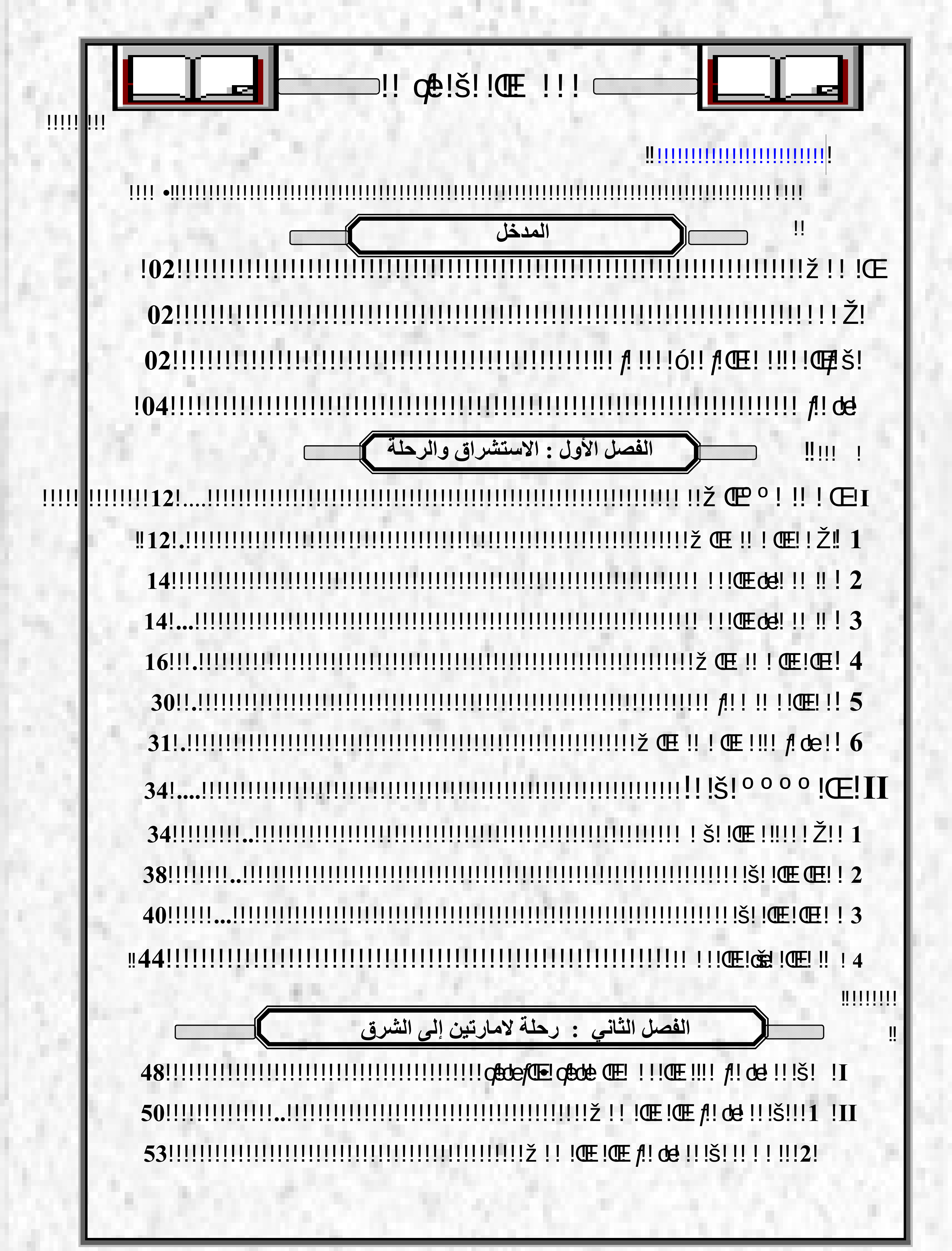
إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك ، ولا تطيب اللحظات إلى بذكرك ، ولا تطيب الآخرة إلى بعفوك ، ولا تطيب الجنة إلى بذكرك ، ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك .

إلى من بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، إلى بني الرحمة ، ونور العالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

إلى من كلمه الله بالهيبة والوقار ، على من علمني العطاء دون انتظار ، إلى من أحمل اسمه بكل افتخار ، إلى من جرع الكأس فارغا ليسقيني قطرة أمان ، إلى من كلت .... ليقدم لي لحظة حنان " أبي " .

إلى سيدي وقوتي وميلادي بعد اله والرسول إلى من آثرتني على نفسها إلى من علمتني علم الحياة ، وإلى من أظهرت لي ما هو أجمل من الحياة " أمـــي " ساكتفي بك عن كل الوجوه ، يا أنت التي لا تشبهين أحدا إلا أنمت ، يا تاريخ الفرح في بسمتي خذي تاريخا لم يبتدئ إلا بك ولك أنت .

إلى من بها أكبر وعليها أعتمد إلى شمعة مقتدة تنير ظلمة الليالي ، على من غرست التميز ومعانيه بين جدران فؤادي لكي احلق في سماء النجاح لذا أرسل لك وساما من النور بعدد كل نجوم السماء.



!! œ!š!Œ !!!

المدخل

الفصل الأول : الاستشراق والرحلة

الفصل الثاني : رحلة لامارتين إلى الشرق



مقدمـــة:

ينطلق اهتمامنا بالآداب الأجنبية من صميم اختصاصنا أوّلا ، ثم من شغفنا ومحبّتنا للشعر الرومانسي، وقد تسنّى لنا خلال مطالعتنا المتكرّرة التعرّف على بعض النصوص الشامخة التي تركت فينا انطباعا جميلا ،ورسّخت لدينا قناعة بضرورة دراسة هذه الآثار ، تقف قصيدة لامارتين (البحيرة) في قمّة تلك النصوص لما تتميز به من جمالية الكلام وشجى الطرح وحسن السّبك ، كانت تلك أهم الدّوافع التي جعلتنا نتخيّر موضوعا يتعلّق بهذا الشعر وسميناه بـ : الشرق في كتابات لامارتين . فلسطين أنموذجا.

سنسعى خلال هذا البحث للإجابة عن جملة من التساؤلات أهمها : ما هي المميزات الأساسية لنظرة لامارتين إلى الشرق ؟ ما هي الفروق التي ميزت نظرة لامارتين عن سواها ؟ نظرة شاتو بريان مثلا ، ما هي أهم التّجليات التي طبعت هذه النظرة ؟

لقد توضّح لنا أن الإجابة عن التساؤلات السّالفة تفترض إلماما بالدّراسات التي كتبت في هذا الشأن ، كما أنها تنطلق من الضرورة الملحّة لتوظيف الطاقات المعرفية التي تنبني على البحوث الأكاديمية المعدّة حول هذه الشخصية أو حول الأدب الفرنسي عامة . يقف في عتبة هذه الكتب مؤلف لامارتين (رحلة إلى الشّرق) الذي نعدّه أهم النصوص التي أسّست لبحثنا هذا.

يعد لامارتين من المستشرقين المحدثين الذين ارتحلوا باتجاه مصر ، سوريا ، فلسطين والأردن وشغفوا بطبيعتها الخلاّبة ، لم تكن الرحلة بغرض التمتع. إنما كانت بهدف دفع السأم والتفريج عن الكرب ومساعدة ابنته جوليا على تجاوز مرضها ، وبعد المطالعة تجمعت لدينا مجموعة من المعلومات كانت كافية لدفعنا إلى وضع خطة مبدئية هي : مدخل : حددنا فيه مفاتيح الدراسة وعرفنا بالشرق وتموضعاته كما تعرّضنا إلى التحديدات الجغرافية للشرق وشعر لامارتين وأهم مضامينه.

بعد التعريف بشخصية لامارتين وأشعاره وأهم كتاباته رأينا من الضروري وضع فصل يتعلّق بالرحلة والاستشراق ومفهوميهما ، وأهم الدوافع التي كانت سببا فيهما ، كما عرفنا بأهم المستشرقين والرحالة ، في الفصل الثاني وهو الفصل التطبيقي وظفنا النصوص التي كتبها

لامارتين لإجراء مقاربة حول موقع الشرق في شعر لامارتين لكن ذلك لم يتّم إلا بعد استعراض وجوهات هذه الرحلة إلى الغرب والى الشرق مع التركيز على رحلة الشرق لأنها موضوع بحثنا.

كما حدّدنا النصوص التي تتوضّح فيها طبيعة الشرق والكيفية التي تمّ بها وصف هذا الشرق ، وعرّفنا بالعادات والتقاليد المتنوعة التي تشيع في الشرق وهي عادات مألوفة طبيعية لدى الإنسان العربي لكنها غير ذلك في نظر الغرب الدين يسعى الشاعر إلى نقل الصورة إليهم يهمّنا في هذا السياق كيفية نقل تلك الصورة لأن الأمر يتعلّق ببعض الأشكال العقائدية والطباع كالكرم وطرق اللّباس وحفاوة الاستقبال وكيفية تأدية الشعائر الدينية ، المسيحية واليهودية والإسلامية.

لقد اعترض سبيلنا جملة من الصعوبات الكثيفة أهمها : ندرة المراجع المتعلّقة بكتابات لامارتين ، كما أن المصدر الذي وضعناه محورا لدراستنا لم يكن بالإمكان العثور عليه إلا بعد جهد جهيد وبحث مضن ، ورغم أنّ ذلك زاد في حلاوة البحث وطلاوته إلا أننا نتمنى أن نكون قد وفقنا فيه.

إن مثل هذه الدراسة تحتاج إلى منهج متميّز يسهّل محاصرة الصّور ومتابعتها فكان المنهج الوصفي التحليلي هو المنهج الذي اخترناه في دراستنا هذه التي نتمنى أن نكون قد وفقنا فيها ، وهو أمر لم يكن ليتم إلا بمساعدة بعض الدكاترة والأساتذة والزملاء وعمال المكتبات وفوقهم جميعا تقف الأستاذة المشرفة والدكتورة " ليلى جباري" التي نشكرها على إشرافها ومتابعتها.

قسنطينة في ../../2011.

زار الكاتب والشاعر السياسي الفرنسي الكبير ألفونس دو لامارتين العديد من مناطق العالم في الغرب والشرق ، أتى إلى الشرق ليحقق رحلة حقيقية فعرف كيف يفتح الأعين على حقيقة مشرقية واقعية ، وكانت هذه الرحلة نتيجة أسباب وهناك من يقول أن رحلة لامارتين إلى الشرق تتعلق برغبة في مواجهة المسألة الدينية على أرض الواقع وتوسيع خبرته في المجتمعات الإنسانية ، وهناك من يرجعه إلى سبب عائلي يتمثل في اشتداد مرض ابنته جوليا وأمله بأن هواء الشرق - لبنان خاصة - قد يمنح الشفاء لابنته ، والملاحظ أن هذه الرحلة هي التي أعطت تألقا للشاعر سواء على الصعيد الفكري أو السياسي ، وفي بحثنا هذا قمنا بدراسة بعض المناطق التي زارها الشاعر في الشرق وموقفه من الشرق عامة ، لكن قبل الحديث عن هذا وذاك ارتأينا الوقوف عند بعض المصطلحات والتعريف بها التي من شانها أن تسهل على القارئ الدخول مباشرة في الرحلة ودون مشقة وعناء بالبحث عنها ،من ضمن ما سنتطرق إليه التعريف بشخصية لامارتين والأمكنة التي زارها بالشرق فما هو الشرق ؟ ومن هو لامارتين ؟.

الشــــــــــرق:

مفهومه:

يستعمل هذا المصطلح للإشارة للدول والحضارات الموجودة في هذه المنطقة الجغرافية سميت هذه المنطقة في عهد الاكتشافات الجغرافية من قبل المكتشفين الجغرافيين بالعالم القديم وهي مهد الحضارات الإنسانية وكذلك مهد جميع الديانات السماوية .

تحديداته :

الشرق هي منطقة جغرافية تشمل بلدان غرب آسيا وشمال إفريقيا تطل منطقة الشرق على البحر الأحمر والخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود.

يعتبر الشرق من أكثر مناطق العالم توترا أمنيا حيث شهد أكثر من 10 حروب منها الحروب العربية الإسرائيلية والحرب العراقية الإيرانية وغزو العراق للكويت وشهد غزو العراق 2003 الاحتلال الأمريكي البريطاني لدولة العراق والمشكلة النووية الإيرانية والاحتلال

الإسرائيلي لفلسطين والحرب الإسرائيلية على لبنان ولا نستطيع التكهن بأن الحروب في هذه المنطقة ستنتهي لما لها من أهمية اقتصادية وإستراتيجية ومصالح دول كبرى.

شهد الشرق عبر تاريخه الطويل العديد من الحروب العربية الإسرائيلية يعاني سكانه من الفقر بشكل عام ، يعتمد غالبية سكان الشرق على الزراعة كمصدر رزق عام وعدد ضئيل جدا منهم فقط يعتمد على الصناعة باستثناء دول إسرائيل التي تعتمد على الصناعة والزراعة بنفس الوقت والدول العربية البترولية التي يعتمد اقتصادها على الصناعات البترولية مثل : السعودية وقطر والإمارات وعمان والكويت فتتميز بتطور هياكلها الاقتصادية وارتفاع مستويات المعيشة . مازالت إسرائيل حتى اليوم تشهد خلافات مع باقي دول الشرق بالرغم من اتفاقيات السلام بينها وبين الأردن ومصر .

معظم دول الشرق نامية نسبيا بسبب سكانها فالدول تهتم كثيرا بعدم الهجرة الداخلية من المناطق القليلة السكان إلى المناطق المكتظة وبالأخص إلى العاصمة ، هذه الهجرة تؤدي إلى انهيار المدن تحت وطنة سكانها المهاجرين وبسبب التزايد الطبيعي العالي .

هناك دول في الشرق تشتهر بموارد النفط الكثيرة كبعض دول الخليج فقد تطورت دول الخليج تطورا كبيرا بعد اكتشاف النفط فيها بسبب التزايد المستمر في طلبه ، فأصبحت دبي من أكبر مدن العالم الترفيهية والسياحية حيث تطور هناك كل شيء : البنى التحتية والمراكز الترفيهية والعلمية والهندسية البنائية والكثير من الأشياء الأخرى.

تعاني دول الشرق من نقص كبير بالمياه فقد تحالفت دول كثيرة بسبب هذا الموضوع وربما تحدث حرب كبيرة مستقبليا بسبب هذه المشكلة .

معظم دول الشرق تقع في قارة آسيا : سوريا ، لبنان ، العراق ، الأردن ، إسرائيل ، فلسطين ، إيران ،تركيا ، دول شبه الجزيرة العربية ، السعودية ، الإمارات ، قطر ، عمان ، اليمن ، البحرين ، الكويت.

الفرنسي دولامارتين:

الكاتب والشاعر السياسي الفرنسي ألفونس دولامارتين ولد في ماكون macon يوم الحادي والعشرين من أكتوبر 1790 ، (1) كانت والدته تطلب منه فقط أن يكون طيبا وإنسانا حقيقيا ، لما يقول هو حرفيا ، لذلك كبر وترعرع في قصر ميلي تحت إشرافها ، أما والده بيردو لامارتين فهو ينتمي إلى عائلة من النبلاء وهو صاحب عدة أراض ومزارع ، مثل المنزل الريفي في ميلي والمحاط بأراضي زراعية ومنتجة للنبيذ ، البيت الذي أمضى فيه الشاعر طفولته.

في عام 1801 التحق الشاعر بمعهد بوبيير في مدينة ليون ولكنه لم يكمل تعليمه فيه وهرب في السنة التالية ، وانضم في عام 1803 إلى الكوليج اليسوعي pères de la foi de belly إضافة إلى كونه طالبا متفوقا ، بدأ يتجه إلى احتراف الشعر . من ضمن زملائه في الدراسة aymonde verieu الذي ارتبط معه في صداقة قوية حتى نهاية حياته بعد أن أكمل دراساته عام 1808 وحسب التقاليد والعادة عليه إنهاء الخدمة العسكرية ولكن العائلة المرتبطة بالبوريون وهي عائلة من أعلى الطبقات في ذلك الزمان لم ترغب أن يقدم الفونس أي شكل من الخدمة الإمبراطورية ، وفي سنة 1811 أرسلته عائلته ليستجم في إيطاليا حيث كان لهم عدة أقارب هناك في ليفو ، نوويبزا و نابولي وهناك في نابولي كانت أول تجاربه العاطفية مع فتاة من المنطقة antonella jacomino التي تذكرها بعد سنوات في قصيدة كتبها عام 1852 (جرانزيلا) عاد إلى ميلي عام 1812 حيث أصبح عمدة وكانت هذه أولى خطواته للحياة السياسية والتي كانت لها أهمية كبيرة في المستقبل .

وفي عام 1814بعد سقوط نابليون أصبح لامارتين حارسا شخصيا للويس الثامن عشر في بوفغاس ولكن عودة الإمبراطور جعلته يهرب إلى سويسرا ثم إلى سافويا وذلك لمنع تجنيده عاد إلى فرنسا في نوفمبر وباشر الخدمة العسكرية . في نفس العام بدأ يهتم بالأدب والشعر والتراجيديا فكتب منذ عام 1813 حتى 1818 (Médée et Saul) ولكن هذه المحاولات كانت فقط تجارب مقلدة عن راسين وفولتير حيث أن سلسلتها لا توجد بها الحبكة الدرامية

كان لامارتين راضيا عن حياته الأسرية ولكنه كان يعاني من اضطرابات في الكبد فنصحه الأطباء بالسفر وكان يعالج من هذه الآلام في Aix- les-Bains هناك أحب فتاة حضرت لنفس السبب لتعالج فأعجب بها وأعجبت به وأمضى معها إجازة في سافويا وقاما بالرحلة إلى Hautecombe عن طريق بحيرة بوجيت وعرف أنها مريضة بمرض صدري فأشفق عليها وأغدق عليها من عطفه وحنانه وأثناء تنزههم تعرض قاربهم لعاصفة قوية وكانت له ذكرى في هذه البحيرة مع العاصفة وقصة حب طويلة ، وبعدها عاد لامارتين إلى باريس وكتب لجولي رسالة بصفة النثر ليخبرها انه سيكون في أفريل على ضفاف البحيرة وكتب قصيدته المشهورة (البحيرة le lac) وجاء إلى الموعد ليهديها نسخة من الديوان ولكنها لم تأت لأنها توفيت في الثامن عشر من ديسمبر ألف و تسعمائة وعشرون وهذه القصيدة مدرجة ضمن مجموعته الشعرية بعنوان تأملات شعرية سنة 1820 وكان عمره آنذاك واحد وثلاثون عاما ، وهذا الديوان مكون من واحد وعشرون قصيدة كلها كتبت بين سنوات 1816و1819 مستوحاة من حبه لجولي شارل هذه الفتاة الرائعة الجمال المجنحة الخيال الرقيقة العاطفة المرهفة الحس كلها صفات جعلت لامارتين يحبها وبالتالي دفعته للكتابة عنها (البحيرة 1816- الاحتجاج 1816- الخلود 1817 –العزلة 1818- المساء الذكرى واليأس 1819) وقصائد أخرى كلها بإلهامات دينية مثل العناية الإلهية والإنسان le providence à l’homme أوle prière .

في إصداراته التالية لامارتين أخد قصائد أخرى أضافها إلى ديوانه سنة 1849 مع كتابه مقدمة كتب فيها عن مهنته وحبه للقصيدة الشيء العجيب الغريب أن ديوان لامارتين الأول جعل منه بين عشية وضحاها شاعرا مشهورا يشار إليه بالبيان من قبل النقد والبيع المتزايد لديوانه حيث أضاف 45000 نسخة في أربع سنوات (كشعار الرومانطقية) قادرا على إعطاء المستمعين المغرمين ما يريد منه وكما يلقبونه ، قصائده تأتي من أعماق القلب على عكس جان باب تيست روسو أو بيير ليبروم.

توصف قصيدة لامارتين (البحيرة) بأنها قصيدة وصفية ومع دلك فان قارئ القصيدة لا يكاد يجد فيها أي وصف لتلك البحيرة ، و لكنها قد استحالت إلى مجرد إطار لتجربة عاطفية عناها الشاعر على ضفاف البحيرة مع حبيبته <<ألفير>> التي قضى معها على ضفافها خمسة عشر يوما سنة 1816 ثم تواعدا على العودة إليها في العام التالي لكن شاء القدر أن يعود لامارتين أما ألفير فكان الموت قد طواها بداء الرئة فكتب لامارتين فكتب لامارتين هده القصيدة باسم البحيرة وما فيها من وصف البحيرة غير ملامح خاطفة أما بقية الشعر فعن ذكرياته مع ألفير وتأملاته في الحياة والموت [1] .

بعد علاقته القصيرة مع إحدى الايطاليات التي تنتمي إلى أسرة من النبلاء وتدعى lena de larche عين في مارس مابين عام 1820 سفيرا بمدينة نابولي بايطاليا ولكنه استقال في مايو وفي اليوم الخامس من يونيو تزوج من فتاة انجليزية تدعى ماري أن mary enn) (elisa birch برود ستانت بعد عدة قصص حب فاشلة من بينها قصة مع من ألهمته قصيدة البحيرة وعاش معها في القصر الذي أهداه والده في سانت بور بالقرب من ماكون وفي فيبراير عام ألف وثمنمائة وعشرون في روما ولد أول مولود له ألفونس alphonseا لدي لم يعش طويلا توفي في نوفمبر عام 1823 وفي مايو ألف وثمانمائة واثنان وعشرون ولدت ابنته الثانية التي أسماها جوليا ذكرى حبه الكبير والتي توفيت عام 1832.

اهتم لامارتين كثيرا بالشعر و القصيدة فنشر (مرت سقراط) التي مجد فيها الفيلسوف اليوناني وهو رائدا للمسيحية ، وبعد خمس أيام فقط في الخامس والعشرون من شهر الفاتح ألف وثمانمائة وثلاثة وعشرون (1823) ظهرت مجموعة شعرية ثانية تحت عنوان (تأملات شعرية جديدة) nouvelles méditation poétiques وهي مجموعة مكونة من خمسة وعشرون قصيدة متنوعة ولكن هذا الديوان لم يحصد النجاح كالسابق وفي عام 1825 في شهر يوليو عين وبعد محاولاته الفاشلة الانضمام إلى الأكادمية الفرنسية في فلورنسا ولكن في أغسطس عام 1828 عاد إلى فرنسا لمتابعة حياته السياسية ومحاولة أخرى للانضمام إلى الأكاديمية وعين في الخامس من نوفمبر قبل وفاة والدته في السادس عشر من نوفمبر دخل رسميا في الأول من أفريل 1830.

(1) مجلة الفيصل : مجلة ثقافية شهرية ، عدد 60 ، 1982 ، الرياض السعودية ص 67 .

في الخامس عشرة من يوليو عام 1830 نثر قصائد (الاتجاهات الشعرية و الدينية) وهي مجموعة مكونة من ثمانية و أربعون قصيدة شعرية ألفت أغلبها في فلورنسا وفيها يتغنى بالدعاة الديني مثل (دعا الله من الوحدة للشكوك والعقيدة بالله ، الذي يتجلى في كل ركن من أركان الكون .

وفي سنة 1832 انطلق لامارتين مع عائلته وبعض الأصدقاء من مرسليا عن طريق البحر وصولا إلى بيروت في السادس من سبتمبر وصل إلى القدس في عشرين أكتوبر وذلك ليتلو صلاة أمام القديس سبوليرو sepolero وتعرف على فلسطين حيث يوجد معهد المسيح ومقدسات المسيحية ولدى عودته إلى بيروت توفيت ابنته جوليا فكتب قصيدته (موت جوليا) والتي نشرت عام 1835 ثم كتب قصائد يقول فيها احتفالات الكنائس والصلوات و الطقوس الدينية لا تنفع ، الله هو سر الكون والمسيح مجرد رجل . وكتب رحلتي إلى الشرق يقول لامارتين عن لبنان التي زارها " إن كل صور الشعر المستوحى من الكتاب المقدس محفورة بأحرف كبيرة على الوجه المبين للبنان من قممه الذهبية ووديانه المتدفقة كانت هده الأرض ، الأولى على الأرجح ، أرض الشعر الرهيب و المبكى البشري فالمنحى المؤسف والكبير للأنبياء متمثل في طبيعتها الموحشة و المؤسفة والكبيرة ".

لامارتين له مكانة خاصة عند اللبنانيين حتى إحدى شجيرات الأرز في غابة الأرز تحمل اسم أرزة لامارتين ولقد حفر عليها اسمه كما أن أحد أودية حمانا يحمل اسم وادي لامارتين وكتابه رحلتي إلى الشرق المذكور به وصفا دقيقا لتلك المناطق اللبنانية التي نزل بها.

نشر لامارتين كتابين يمثلان ملحمة النفس وهما جوسلين عام 1836 وهبوط الملائكة 1838 ثم عبر عن اهتماماته الإنسانية في تأملات عام 1839 كما نشر تاريخ الجيروندان 1847 فكان هذا الأخير قمة أعمال لامارتين في السياسة أصبح وزيرا للخارجية عام 1848 وانتهت مهامه 1851 [1] .

(1) موربس حنا شربل : موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب ، كانون الأول – طرابلس لبنان 1992 ص ص 387 388.

بعد صعود نابليون الثالث على سدة الحكم ، عن طريق انقلاب عسكري هذا الأخير كان السبب في وضع حد لحياة لامارتين السياسية فبعد أن أصبح اليمين الرجعي الكاثوليكي في السلطة لم يعد له محل .

لامارتين شاعر رومانسي وروائي اشتغل بالسياسة وكان شديد الاهتمام بالديمقراطية وكان قوي الإيمان بالله (وظهر دلك في قصيدته هبوط الملائكة) .

لم يستطع لامارتين التشبه بفكتور هيقو في الهجرة فعكف على الأعمال الأدبية السريعة كي يكسب المال (ليسدد الديون التي تراكمت عليه نتيجة الممارسات السياسية فكتب روايات اجتماعية وسير حياة مثل كتاب الأسرار confidence 1949 وخلال إقامته مع عائلته بعيدا عن السياسة كتب الكرمة والمنزل سنة 1857 [1] .

يعد لامارتين من أعظم شعراء فرنسا و أدبائها ، وقد يكون زعيم المدرسة (الرومانتيكية)في الشعر ، وكان محبا للشرق العربي ، معجبا بتاريخه وتقاليده وأخلاقه وأبطاله وقد كتب وهو في مطلع قصة لفترة ، وسير مختصرة لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت مساهمته حسنة في رد افتراء المفسرين ودعوة مخلصة إلى فهم الإسلام بروح خيرّة ثم زار سوريا ولبنان واجتمع هناك إلى (الليدي ستانهوب) المستشرقة التي اتحدت من (تدمر) عاصمة لملكها السعيد ومن لبنان مقر ثانيا لزعامتها وكانوا يسمونها (ساحرة الصحراء la cire du desert) تشبيها لها بساحرة (هوميروس) التي كانت تسقي الناس كؤوسا مسحورة فتحولهم إلى ما تشاء من الحيوانات أو الحيتان أو الطير ...! بل كان بعضهم يتهمها بأنها (عميلة) للمخابرات البريطانية وآلة في أيدي الانجليز لتحقيق مأرب لهم في الشرق ... ومهما يكن من أمرها فقد كانت (الليدي) أديبة مرهفة الحس، وتوقعت للامارتين بمستقبل عظيم وقالت له أنها ترى فيه ملامح رجل شرقيّ !.

وعلى هذه المقولة التي سرّ منها لامارتين ونقلها في كتاب جليل ألفه عن الشرق سماه : (رحلة إلى الشرق voyage en orient) أخذ بعض الناس ينسجون الحكايات والأساطير ..

(1) المرجع السابق ص 338.

يزعمون أن لامارتين – وهو من النبلاء الفرنسيين – كان أجدادهم من العرب الذين أسرهم الصليبيون.

نشرت مجلة (الهلال) في أحد أعدادها الجديدة ، بحثا عن عروبة لامارتين استشهدت فيه بمقال قديم كان قد كتبه أحمد حسن الزيات في رسالته جاء فيه << أن لامارتين يعترف بصراحة وثقة بجنسيته العربية ولكن الكتّاب الفرنسيين بالطبع لا يؤيدون هده النسبة ... فهل فينا من يصمد لهدا البحث في مضانّه فيضيف إلى عبقرية العرب هده العبقرية الخالدة ويرجع إلى أرواح الشرق هذه الروح الشاردة ؟ >> (1) .

وفي هدا الصدد قال الدكتور علي غصن يبدو أن رجلين أسرعا إلى تلبية نداء الزيات أحدهما الأستاذ عبد الله كنون الحسيني من المغرب والثاني من المغرب ، والثاني من بيروت ، الأول بقول أن في بلاد المغرب أسرة تدعى (لعمارتي) يغلب على الظن أن أفرادها من عرب الأندلس المهاجرين .. ولعل بعض أفرادها هاجروا إلى فرنسا فأصبح أسمهم هناك : لامارتين ! والثاني يقول : أن أسرة لامارتين أصلها بلاد سوريا ولبنان أسر أفرادها الصليبيون وذهبوا إلى فرنسا وفي سوريا في ما نعلم أسرة تدعى(المارتيني) وهي أقرب في لفظها من لعمارتي ! ولكننا على حبنا للامارتين وإعجابنا به لا نرى فائدة من وراء التعمّق في نسبه وحسبنا : أدبه الذي يتغنى بنا وقلبه الذي يخفق بحبنا !

أما حياته فبإمكاننا أن نقدمها على شكل ثلاثة فصول تبدو لنا متميزة عن بعضها بوضوح أي كان لحياته ثلاث أوجه هي :

- الشاب الأنيق: وذلك حتى عام 1820 .
- الشاعر : ابتداء من عام 1820 وهو تاريخ ظهور(التأملات) حتى 1833.
- السياسي: اعتبارا من انتخابه عضوا في مجلس النواب عام 1848 ، وكان انهياره السياسي على أثر ترشيحه لرئاسة الجمهورية التي نجح فيها لويس نابليون الذي أصبح فيما بعد نابليون .

وفي عام 1807 لم يقبل هدا الشاب الذي ينحدر من أسرة ملكية نبيلة وريفية أن ينحني ليدخل في خدمة الغاصب (أي نابليون الثالث) وكان عمره أنداك لا يتجاوز السابعة عشر ،

(1) http:// aliababe3e.maktoobblog.com/ . dat 16/02/2011.

بل آثر الانزواء والعيش في أملاك والده النائية في (ميليلي) قرب ضفاف نهر(اللوار) في أواسط فرنسا وكان يقرأ بشغف للأقدمين و لكتاب العصور الوسيطة والحديثة ، وللكتاب الايطاليين والانجليز ولكن علينا أن نتصور أن لامارتين كان شاعرا حساسا وممتازا ومؤثرا في الحركة الرومانطيقية في الأدب الفرنسي . فكان الشعر الصدى العميق الصادق لمعاناة النفس البشرية [1] .بيد أن روحه لم تكن فريسة أوهام وهواجس رومانسية مريضة فلم يكن أمامه منفذ سوى اللجوء إلى الحب وقد كانت له في هدا المجال جولات صغيرة .

لقد زار لامارتين تركيا و أمضى فترة طويلة في أزمير ، وقرأ كثيرا عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول عنه : أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمدًا دراسة وافية وأدركت ما فيها . لقد كتب لامارتين مادحا وممجدا في صفاته وشمائله وعنون نصه بـ (حياة محمد) والذي كتبه سنة 1854 " ... انه المجاهد فاتح مغلق أبواب الفكر باني صرح عقيدة قوامها العقل و طريق عبادة مجردة من الصور و الأشكال مؤسس عشرين دولة ثابتة على الأرض ودعائم دولة روحية فرعها في السماء ، هدا هو محمد فبكل المقاييس التي نزن بها عظمة الإنسان فمن ذا الذي يكون أعظم منه ؟" [2] .

توفي لامارتين في الثامن و العشرين من فبراير عام 1869 في باريس ،رفضت أسرته جنازة الدولة خوفا من استغلال السلطة لمصلحتها .

من أقوال الشاعر لامارتين:

الإحساس و الشعور هو الشعر الخيالي .

أحب من أجل أن أحب هذا إنساني ولكن الحب للحب هذا ملائكي

القلوب المتواضعة مفتحة بدون شك لأن تحت المشاعر لا توجد مصالح .

يوم واحد من الدموع يستهلك أكثر من سنة من العمل.

---

(1) موريس حنا شربل سبق ذكره ص 388.

(2) http://alkbria.maktoobblog.com/ dat 23/01/2011.

I. الاستشـراق:

1. مفهوم الاستشراق:

أصبح الاستشراق اليوم علما له كيانه ومنهجه ومدارسه وفلسفته ودراساته ومؤلفاته وأغراضه وأتباعه ومعاهده ومؤتمراته ، فصار حقا على الباحث أن يعنى بتحديد مفهومه والوقوف على معالمه البارزة [(1)].

أ. **المفهوم اللغوي:** الواضح أن كلمة الاستشراق مشتقة من مادة < شرق> يقال : شرقت الشمس مشرقا وشروقا إذا طلعت [(2)] والجدير بالذكر أن الكلمة التي نبحث عن مفهومها اللغوي لم ترد في المعاجم العربية المختلفة [(3)] .

ب. **المفهوم العلمي :** إذا أريد تحديد مفهوم كلمة الاستشراق علميا يجب أولا النظر إلى أحد المعاجم الحديثة ثم إلى رأي علماء الغرب وعلماء العرب لكي يكون في الإمكان بعد دلك القيام بمحاولة وضع تعريف محدد لهدا المصطلح [(4)].

وقد جاء في بعض المصادر اللغوية الحديثة : " استشرق طلب علوم الشرق ولغاتهم " [(5)] . والمستشرق هو عالم متمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه.

والاستشراق بأحد مفهوماته هو اشتغال غير المسلمين بعلوم المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم وآدابهم وأساطيرهم [(6)] .

يعرف على العناني الاستشراق بقوله : " من صيغة هده الكلمة نعرف أن المستشرق هو المشتغل بالعقليات الشرقية سواء أكانت سامية أو غير سامية ولكن هده الكلمة في اصطلاح العلماء والأدباء تطلق على المشتغل بالعقليات السامية خاصة ، ويتبع البحث في اللغات الحامية " [(7)] .

---

(1) أحمد سمايلوفيتش : فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ، دار الفكر العربي القاهرة ، 1998 ص 21.
(2) المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج1 القاهرة 1960 ص 482.
(3) ابن منظور : لسان العرب م 10 ص ص 179/173.
(4) أحمد سمايلوفيتش : المرجع نفسه ص22 .
(5) الشيخ أحمد رضا : معجم متن اللغة ج3 ص 311.
(6) علي بن براهيم الحمد النملة : الشرق والغرب منطلقات العلاقات ومحدداتها ط2 المركز الثقافي الغربي 2005 ص 94.
(7) علي العناني : المستشرقون والآداب العربية مجلة الهلال القاهرة 1932 ص 40.

يقول أحمد الشرباصي : المستشرقون قوم من أوربا ، نسبوا أنفسهم إلى العلم والبحث وشغلوها في بعض الأحيان بالبحث في التاريخ والدين والاجتماع ولكل منهم لغته الأصلية التي رضع لبانها من أمه وأبيه ومجتمعه وبيئته فصارت له << اللغة الأم >> كما يعبرون فهو يغار عليها ويتأثر علبها ويستجيب لموجباتها ، ولكنه مع دلك تعلم اللغة العربية بجوار لغته الأصلية ليدرس حضارة الشرق وعلومه و آدابه (1).

ويتطرق محمد عبد الغني حسن لعلم الشرق قائلا : << الاستشراق هو اشتغال غير الشرقيين بدراسة لغات الشرق وحضاراته وفلسفاته وأديانه وروحانياته وأثر دلك في تطور البناء الحضاري للعالم كله >> (2) .

ويتعرض " محمد الحوماني" لدراسة الاستشراق فيقول : << يكاد يكون الاستشراق علما قائما بنفسه له أصوله وفروعه ، وله مقدماته ونتائجه ويكاد يكون رجاله على رغم شتاتهم شعبا خاصا له أفقه الخاص به وحياته المقصورة عليه، وقد مرة بهذا الشعب وبرجاله في العالم قرون لم يكتشفه ،كما هو عالم أديب ولكن هناك بضعة من الكتاب نقلو لنا وللغرببين نتفا من أخبار هذا الشعب ... في معرض النقد أو التقريظ ، والناقل إما شرقي يشكر للمستشرق إنصافه أو ينعي عليه تعصبه ، وإما غربي يشكر له تعصبه وينعي عليه إنصافه >> (3) .

الاستشراق ظاهرة ثقافية ذات أبعاد عالمية إنها صورة من صور حوار وصراع الحضارات، حوار كونها تفسح المجال أمام جهة من جهات عالمنا هدا للاطلاع على القيم المعنوية والمادية المشكلة لحضارات الشرقية المختلفة وما تحمله هذه القيم من نقاط ضعف أو قوة وهو في الوقت ذاته صراع في بعض جوانبه إذا خلا هذا العمل من براءة التثاقف الطبيعي ولبس لبوس السياسة والاستعمار وطلب الغلبة لجهة على أخرى .

وهو أيضا تلك المحاولة التي قام ويقوم بها بعض مفكرين الغرب للوقف على معالم الفكر الإسلامي وحضارته وثقافته وعلومه... (4) .

---

(1) أحمد الشرباصي : التصوف عند المستشرقين سلسلة الثقافة الإسلامية مطبعة نور الأمل 1966 ص 27.
(2) محمد عبد الغني ، حسن عبد الله الفكري أعلام العرب ص 89 .
(3) محمد الحوماني المستشرقون الرسالة 1937 ص 102.
(4) محمد سيد الجليند : الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة دار قباء القاهرة مصر (ط) 1999 ص 7 .
(5) أحمد درويش الاستشراق الفرنسي والأدب العربي ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة 2004 ص 36.

كما انه بحث الغرب عن الشرق واتخاذه موضوعا للمعرفة ومحاولة التعبير أحيانا بالانانة عنه وخلق صور ليس من الضروري أن يكون كل رصيدها من الواقع والبناء على هذه الصور واعتبار رصيدها تراثا يشكل واقعا مثاليا [(1)].

2. رأي علماء العرب:

ذهب علماء العرب مذاهب عديدة لابد من الإشارة إلى بعضها:

عرف أحمد حسني الزيات الاستشراق بقوله:<< يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدينة والعلم ، كان الغرب من بحره إلى محيطه غارقا في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموح [(2)].

3. رأي علماء الغرب :

من بين الغربيين بارت والذي يعرف الاستشراق بأنه " علم يختص بفقه اللغة خاصة ولا بد لنا إذن أن نفكر في المعنى الذي أطلق عليه كلمة استشراق المشتقة من كلمة شرق وكلمة شرق تعني مشرق الشمس وعلى هذا يكون الاستشراق:" علم الشرق أو علم العالم الشرقي"[(3)]

يرى ديتريش أن " المستشرق هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه ولن يتأنى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق" [(4)].

ويعرف جويدي الاستشراق قائلا " والوسيلة لدرس كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب إنما هو << علم الشرق >> بل نستطيع أن نقول أن غرض هذا العلم الأساسي ليس مقصورا على مجرد درس اللغات أو اللهجات أو تقلبات تاريخ بعض الشعوب كلا...
بل من الممكن أيضا أن نقول أنه بناء على الارتباط المتيم بين التمدن الغربي والتمدن الشرقي ليس علم الشرق إلا بابا من أبواب تاريخ الروح الإنساني... وليس صاحب علم الشرق

---

(1) أحمد حسن الزيات تاريخ الأدب العربي ، دار النهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ط 25 ص 512.

(2) أربي : المستشرقون البريطانيون ترجمة محمد الدسوفي النويهي مطبعة ويليام كولينز لندن .

(3) ديتريش : الدراسات العربية في ألمانيا .دار النشر فرانز تشاينر ص 7 .

(4) رودنسون : صورة العالم الإسلامي في أوروبا الطليعة ص 74

الجدير بهذا اللقب بالذي يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة أو يستطيع أن يصف عادات بعض الشعوب بل إنما هو من جمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوى الروحية الأدبية الكبيرة التي أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية هو من تعاطي درس الحضارات القديمة ومن أمكنه أن يقدر شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى مثلا أو في النهضة الحديثة ... وعلم الشرق هذا علم من علوم الروح science de l'esprit يتعمق في درس أحوال الشعوب الشرقية ولغاتها وتاريخها وحضاراتها ثم يستفيد من البحوث الجغرافية والطبيعية أن يسمى كما سميناه درس تاريخ الروح الإنساني من جهة نظر الشرق ، لأن إظهار قوى الروح واستعدادها يختلف باختلاف الزمان والمكان [1] .

ويمضي رودنسون في دراسته لتاريخ الاستشراق قائلا" وهكذا ولد الاستشراق وظهرت كلمة مستشرق في اللغة الانجليزية حوالي عام 1779 ... كما دخلت كلمة الاستشراق على معجم الأكاديمية الفرنسية في 1838 وتجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق ولم يكن المتخصصون بعد من العدد بحيث يمكنهم تشكيل جمعيات أو مجلات متخصصة في بلد واحد أو منطقة واحدة من الشرق ومن الناحية الأخرى كثيرا ما كان أفق هؤلاء المستشرقين يشمل عديدا من المجالات بطريقة غير متوازية في عمقها ، ومن هنا بدأ تصنيفهم كمستشرقين وشاهدت فكرة الاستشراق تعمقا كبيرا [2].

(1) رودنسون : المرجع السابق ص 74
(2) جويدي: علم الشرق وتاريخ العمران- الزهراء- الربيع الأول 1347 ص ص 11-14

4- دوافع الاستشراق :

إذا كان اهتمام الغرب بالشرق كبيرا وعنايتهم به عظيمة فما دوافعه لذلك، وخاصة بعد شيوع الإسلام ودوره الفعال في توجيه الإنسان نحو العقيدة الصحيحة و طلب الحقيقة الخالدة و محاربة الاستغلال في كل مكان وزمان .

ويبدو للباحث بعد الدراسة والاستقصاء أن للاستشراق سبعة دوافع رئيسية وليست ثلاثة كما يظن بعض الباحثين [1] وهي نفسية ، تاريخية ، اقتصادية ، إيديولوجية ، دينية ، استعمارية وأخيرا علمية ، وبجانبها دوافع ثانوية وهي أسباب شخصية مزاجية عند بعض الذين تهيأ لهم الفراغ والمال واتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغباتهم الخاصة في السفر والترحال أو في الاطلاع على ثقافات العالم القديم ، ويبدو كذلك أن فريقا من الناس دخلوا ميدان الاستشراق طلبا للرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية ، أو دخلوه عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء في العلوم الأخرى ، أو دخلوه تخلصا من مسؤولياتهم الدينية المباشرة في مجتمعاتهم المسيحية [2] .

وتتفق مع محمد البهى في أن الأسباب التي أشار إليها تعد حقا بواعث فرعية ، وليس من الضروري بحثها بالتفصيل في مثل هذا المكان ، بل سنكتفي بدراسة تلك الدوافع الأساسية السبعة لأهميتها البالغة وهي :

أ- الدوافع النفسية :

التي تكمن في طبيعة الإنسان نفسها من حيث هو كائن حي ، ومخلوق مفكر ، له خصائصه و أماله وأحلامه و أطماعه وأهدافه ونزواته وإحساساته ، ولابد له أن يتمتع بوجوده المادي والفكري والنفسي على حد سواء ، ومن هذه الدوافع رغبة الإنسان الطبيعية في المعرفة والاطلاع ونزعته الظامئة بالتعرف على حياة الآخرين وأفكارهم ، وغريزته التواقة لمعرفة أخبار الناس وأسرارهم وخباياهم ولذته في تحمل المصاعب للوصول إلى ميادين مبهمة ، ومسائل غامضة وشغفه الشديد بالتجارة وكسب الأموال واكتناز الخيرات والسيطرة عليها وولعه الكامن في نفسه للسيطرة على الآخرين ، وجعلهم يتعلقون به ورغبته الشديدة في أن يعتنق غيره ما يعتنقه هو من عقائد وأفكار وسياسة وفلسفة وميله إلى التفوق على غيره

(1) علي حسيني الخربوطلي ، المستشرقون والتاريخ الإسلامي ص 65.
(2) محمد البهي ، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، دار الفكر بيروت بدون تاريخ ص 533 / 534.

بطريقة أو بأخرى وأخيرا بحثه المتواصل في عقيدة الآخرين للتأكد من سلامة عقيدته واتجاهه ومذهبه في الحياة وهدفه منها ، فالإنسان مفطور على حب الاطلاع، وهذه الرغبة المتأصلة في أعماق نفسه لا يمكن أن تستأصل ،وهي دافع قوي ينمو بنمو العقل ويحمل على طلب معرفة الحقائق الأساسية الكبرى لهذا الوجود وتلك الحياة ، كما يحمل على البحث في علل الأشياء وعلاقة بعضها ببعض ...أحس الإنسان في نفسه الجهل بالشيء فشك فنظر ففكر فاعتقد الحق فيما رأى ، وليس ما يعتقده الإنسان بعد البحث حقا مقصورا على التأمل العميق، بل غاية هذا التأمل أن يستخدم في الحياة العملية ... وهذا هو قصدنا في الحياة، فليس ثمة غرض إلا الفرار من الجهل، والوقوف على الحق وكشف النقاب عن باطل تقنع بحجاب كثيف يوهم أنه حق " [(1)] ،ويتطلع الإنسان لإشباع هذه الرغبات بالاستمرار في السفر والرحلات عبر الأراضي والبحار فيلتذ بمواجهة الصعاب والأخطار يذهب ويعود، ثم يحكي ويقص على أبنائه ومواطنيه فيثير فضولهم إلى ما رأى وشاهد من أثار، وما وقع له من أحداث ولذلك كله كان " للرحلات التي قام بها الأوروبيون في بلاد الشرق، ولما قصوه عن مشاهداتهم فيها أثر بالغ في تاريخ الاستشراق ودوره لا يستهان به في إيقاظ الرغبة في مشاهدة تلك البلاد ودراسة كل ما يتعلق بتاريخها وحضارتها " [(2)] وإذا أخذنا بعين الاعتبار جاذبية الشرق وروعة أثره من قديم الزمان وما أحدث الإسلام فيه فان الإنسان لابد أن يلهبه الشوق إليه .

لما ظهر الإسلام وانتشر بسرعة في تلك البقاع الشاسعة ووقف العالم مشدوها أمام هذه المعجزة الكبرى، وعندما أفاق من ذهوله رأى أمرا عجبا مآذن شاهقة تدوى من عليها بكلمات تكبر الله وتدعوا إليه ومنابر رائعة يتسارع المؤمنون إليها ليسمعوا دروسا في العلوم ومعاهد زاخرة يتزاحم العلماء والطلاب فيها ومراكز بحوث يتسابق الخبراء والباحثون فيها إلى الكشف والابتكار والإبداع ومعاقل جدل مزدحمة يجادل فيها الفلاسفة والمفكرون بحثا عن الحقيقة ودفع لكل باطل واعوجاج فإذا رأى الباحث ذلك استيقظت نفسه وتحرك فكره وعكف على تراث هؤلاء وأولئك ليل نهار يشتغل ليحدث منابع قوتهم وحضارتهم وآدابهم وفلسفتهم

(1) رابورث ،مبادئ الفلسفة .ترجمة أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية الطبعة السابعة 1965ص ص 6/5.
(2) محمد علي حثيثو ورقة من تاريخ الاستشراق الألماني مجلة فكروفن ع 8 ، 1966 ص 44.

وإيمانهم حتى ظهر في الغرب أناس" رأوا العكوف على التراث الإسلامي بأوسع معانيه لتعرف أسباب القوة الخارقة ومقومات هذه الحضارة العتيدة ومن هنا كانت نشأة حركة فيها بعد بحركة الاستشراق" [1]. وقد ولدت أصلا بسبب حيرة الرجل الغربي تجاه العالم العربي[2]. وإحساسه الداخلي بالرغبة في مقاومة التوسع الإسلامي [3] .الذي عبر إلى أوروبا يوما ما وسيطرة على جزء كبير منها .

وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الشرق بكل ما فيه مجهولا للعقل الأوروبي فترة طويلة لأسباب عديدة [4] ، ولكن الغرب لم يسكت على ذلك طويلا وإنما أخد يسعى إلى اكتشاف أحوال شعوبه ومعرفة علومها وآدابها ، وبدأت تنتشر في الأوساط الغربية معومات صادقة وخاطئة إشباعا للظمأ الفكري لدى الرجل الأوروبي ، وقد سد هذا الفراغ الأدب الترفيهي الذي لعب دورا عظيما في بعث همم الاستشراق وحماسة أصحابه و" أدى تزايد الاتصالات عقب حروب استعادة اسبانيا وفتح صقلية الإسلامية وإقامة دول لاتينية في الشرق إلى أن تصبح المعلومات الأكثر تفصيلا والأكثر دقة ضرورة جدا ، وذلك دون إغفال للأحكام المجملة على الإسلام كدين أو للروايات الخيالية التي نقلها الأدب الترفيهي الواسع الانتشار "[5] والذي أثار اهتماما بالغا بسبب طرافته وغرابته .

ومهما يكن الأمر فقد اتضح الآن أن الدوافع النفسية كانت عظيمة الشأن، في نشأة الاستشراق وأن لها أثرا كبيرا في اتجاه علمائه وتطوير حركته مما لا يدع مجالا للشك في أنها تعد أساسا من أسس انطلاق هدا العلم الإنساني الرحب إلى أفاق جديدة واسعة .

---

(1) محمد يوسف موسى ، مقدمة لكتاب يوهان فاك، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ترجمة عبد الحليم النجار مطبعة دار الكاتب العربي 1951.

(2) جاك س . رسلر ، الحضارة العربية ، مقدمة ترجمة غنيم عبدون مراجعة أحمد فؤاد الأهواني ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة خ .د.ت.

(3) أنور الجندي ، الفكر العربي المعاصر مطبعة الرسالة م ت ص 273.

(4) خدابخش الحضارة الاسلامية ترجمة على حسني العربوطلي ، عيسى البابي الحلبي و شركاه 1960 . ص ص 39/37 .

(5) رودنسون . ص 57 .

ب - الدوافع التاريخية :

وهي التي تلوح أمام أعين الباحث على الدوام ، إذ أن المعروف أن العلاقة بين الشرق والغرب كانت عبر تاريخها الطويل تأخذ اتجاهات مختلفة ، من حب ولقاء، وهجوم و عداء ، وهدم وبناء، وإذا أمعن المرء النظر في التاريخ وجد خيوطا واضحة المعاني مند القدم حيث سعى الشرق والغرب أن يسيطر كل منهما على الآخر ومن الجلي أن الغرب كان عبر التاريخ أكثر هجوما وعداءا وأشد بطشا وقوة وأطماعا وقد ترجع هده الحقيقة إلى تركيبه النفسي ونظره إلى الحياة وفلسفته فيها، ولكن هذا هو ما يؤكده التاريخ وما سجله من أحداث .

لقد كانت العلاقة بينهما عبر التاريخ علاقة صراع متواصل ، يلتهب ويخمد ، يشد و يضعف وتطور بعد انطلاق الإسلام وارتقاء المسلمين [1] حتى أصبح مند ذلك الحين صراعا بالسلاح بقدر ما كان صراع بالأفكار ، وبعد أن احتل الإسلام مكانه في التاريخ واحدث فيه ما أحدث [2] واثر في حركة تأثيرا عظيما. [3]

اضطر علماء الغرب إلى دراسته والبحث في كل ما يتعلق به لفهم مظاهره وأحداثه المعجزة وقد أجبرت هده الظروف التاريخية أولئك العلماء للبحث فيها حتى أخذوا يتساءلون من هدا الطارق الجديد على أبواب التاريخ ؟ من أين جاء ولماذا ؟ ماذا أراد وماذا حقق ومادام قد تربع على عرش التاريخ وتفوق أصحابه على عباقرة أثينا وفلاسفتها وخطباء روما ومؤرخيها ، فيجب البحث فيما يتعلق به من حضارة وآداب وفلسفة وأديان ،ولم يعد من سبيل إلى الإنكار بأن الاستشراق قد ولد في أحضان الواقع التاريخي واتجاهه ،ولعل بعض النفوس في الغرب قد أحست بالمرارة من خضوع بلادها المطلق لذلك الطارق الجديد فأرادت إنكار فضله وأشادت بحضارة اليونان والرومان حينا وكان من نتائج صراع الشرق والغرب مند قرون وتفوق العرب على أوروبا أن صار الغربيون يشعرون بمدلة سببها الخضوع للحضارة

---

(1) الأمير شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، دار الفكر للجميع بيروت 1969 ص ص 16/14.

(2) أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، دار الكتاب العربي بيروت . ط7 1967 ص ص 111/88.

(3) أنور الجندي ، الإسلام وحركة التاريخ ، مطبعة الرسالة 1968 ص 147 .

الإسلامية التي لم يتحرروا منها فحاولوا أن ينكروا فضل المسلمين على أوروبا ، ونستطيع أن نقول إن هدا الإنكار من المتعصبين من مؤرخيهم الدين لا يقرون بالفضل إلا لليونان والرومان [1].

ومع أهمية هذا الاتجاه المتطرق من جانب بعض الباحثين الأروبين ،فالمهم هو التأكيد بأن ميلاد الاستشراق كان في أحضان دراستهم هده وأن الدوافع التاريخية كانت من بين أسباب نشأة حركته ويكفي دليلا على ذلك تلك الوقائع التاريخية التي حدثت عندما اجتاحت العالم المعروف في ذلك الزمان جحافل المسلمين واستطاعت أن تؤسس في أقل من قرن من الزمان أكبر وأقوى إمبراطورية عرفتها القرون الوسطى .....وأصبح المسلمون سادة الدنيا بلا منازع [2] ولو أضيفت إلى هذه الأمجاد الإسلامية فتح الأندلس ووقائع الحروب الصليبية ،وضد عدوان المغول ،واستيلاء الأتراك على القسطنطينية ودخولهم إلى أروبا المسيحية وإغلاق الطرق البرية أمام تجارة اروبا نحو الشرق الأقصى واضطرارها إلى الوصول الحري عن طريق الرجاء الصالح ،ثم نزاع الدول الأوروبية فيما بينها في توزيع أراضي أفريقيا وأسيا واستغلالها واستبعاد سكانها ، ومجئ نابليون وقواته إلى الشرق ،وإحساس دول الغرب بالبغض للعالم الإسلامي ورغبتها في القضاء عليه ،وهذه كلها أدلة مؤكدة للدور الذي لعبته الدوافع التاريخية في ميلاد حركة الاستشراق وتكوين فلسفته.

ومن هنا يجب الاعتراف بأن الاستشراق قد ظهر في ظلال الوقائع وتلك الأحداث وترعرع في أحضانها وتطور في ظلالها فكان له أحيانا أغراض بناءة وأخرى هدامة مما يعقد دراسته والبحث فيه وقد (حاول الغرب معرفة ما تمكن معرفته من أحوال العالم الإسلامي حتى يسيطر عليه فرأى أن أهم الوسائل التى توصله لهذا الغرض هو الاستشراق الذي يدرس ما عند الشرق لاستغلاله سياسيا واقتصاديا من ناحية ،وللسطو على تراثه العلمي من ناحية أخرى ،وفعلا نقلو أثارا جليلة وكتبا نفيسة للغرب وكان لها أثر كبير في نهضتهم [3] ولو أمعن المرء النظر في القرن الخامس عشر ميلادي لاتضح له جليا أن الأحداث التى وقعت فيه قد أثرة في الاستشراق تأثيرا بالغا وقد برز من بين هذه الحوادث حادثتان ذات أهمية معدومة

---

(1) مبروك السوسي ، المستشرقون والحضارة الإسلامية ، مجلة (مرآة الساحل) رقم 22 ص 07 .

(2) جلال مظهر ، الحضارة الإسلامية ، كتاب العمل 1969 ص 9.

(3) مبروك السوسي ، المرجع السابق ص 17.

النظير لتأثيرهما في العلاقات بين الشرق و الغرب ،ففي سنة 1453 إلى القسطنطينية إلى الأتراك المسلمين مآلا لا رجعت فيه وارتفع الهلال متالقا على أروبا الشرقية وبعد ذالك بنحو أربعين عاما طاف فاسكودي جاما برأس الرجاء الصالح وجلب التجار والمبشرين البرتغاليين إلى الهند وتلاهم الإنكليز والهولنديين والفرنسيون ،ولكي يؤمن البرتغاليون مواصلاتهم مع الهند وجدوا من الضروري إقامة محطات على سواحل جزيرة العرب والخليج الفارسي ،وقد حذا حذوهم منافسوهم الذين قدر لهم بعد أن يحلو ا محلهم في ممتلكاتهم ،وكل هذا لا يستلزم الجرأة البحرية والحربية فحسب ،بل يستلزم أيضا المهارة السياسية والخبرة الدبلوماسية ،وليس من الغريب على الممثلين الدبلوماسيين بعد إقامة طويلة أن يحرصوا على تعلم لغة وثقافة البلاد التى يمثلون فيها مصالح وطنهم [1]...

ونعتقد أنه يجب الاكتفاء بهذا القدر من دراسة الدوافع التاريخية التي أثرت في حركة الاستشراق إذ أصبح واضحا أن لها دورا بارزا في ظهوره ، وتطورهم وتغذيتهم على حد سواء .

ج. الدوافع الاقتصادية:

وهي من الدوافع البارزة أمام كل من له دراية بالعلاقات بين الشرق والغرب ، لأنها بطبيعتها تدفع الإنسان لالتماس سبل العيش عبر الأراضي والبحار في جميع بقاع العالم وفي سبيل وصول الإنسان إلى هدا الهدف يشهر سلاحه ويستعين بقوته وبطشه ووجد لدلك سبيل ، يأخذ ويحتل ويسلب وينهب ويسيطر ويستعبد ويهدم ويخرب ويغامر بحياته ويقامر بحياة الآخرين وبسبب هده الطماع الجشعة تتابع الهجمات المسعورة من السيطرة على جميع مرافق الحياة في العالم العربي ، ثم على العالم بأسره ولدا كانت النواحي الاقتصادية من اشد الدوافع إلحاحا في اندفاع الغرب لتعلم لغات الشرق ودراسة حضاراتهم من ثم كان العلم الإسلامي مجالا اقتصادية إذا أهمية قصوى بالنسبة لعدد كبير من التجار الأوربيين [2] . وتبع دلك بالضرورة عناية الغربيين بدراسة علومه وثقافته وفلسفته ومن خلال هده الدراسات أدرك الغرب أنه إذا أراد أن يسامى الشرق ويتوق عليه فليس له من سبيل أخر يصله إلى انتزاع

(1) آربري ، المستشرقون البريطانيون ترجمة محمد الدسوقي النويهي ، ص 14.

(2) رودنسون ، سبق ذكره ص 58.

زمام الأمور من يده إلا بتعلم لغاته ، وما يتعلق بها من حضارة وعلوم ، وأدرك أنه لكي يتسرب إلى مصادر القوة في الشرق ويمزقها يعلي يتسلح بالقوة الاقتصادية ، ولدلك تشبث بهذا المحور وجعله هدفه الاسمي وصغر كل شيء في سبيله << وطلب التجارة الرابحة ، وهو أقوى المشجعات البشرية على النشاط والعمل ، كان له أثره الطبيعي في الأمة ومجهوداتها الفكرية وبينما كان التاجر بسعى في تحصيل النفع المادي من الشعوب الشرقية [1] شرع يتعلم لغاتها وآدابها وينشئ المعاهد ويؤسس الجمعيات ليتعلم أبناء جلدته ومواطنيه ، وعلاوة على الأسباب المذكورة للعوامل الاقتصادية توجد أسباب أخرى لها لأن هناك عامل اقتصاديا للإستشراق يتخذه كثيرا من المثقفين كمهنة ناجحة وكثيرا من أصحاب المكتبات التجارية والقائمين عليها يشجعون نشر المؤلفات والكتب التي تدور حول الإسلاميات والشرقيات ويتشرفون على نشرها لما يرون لها من سوق نافعة في البلاد الشرقية [2] .

ومن الجلي أن لهده الدوافع دورا بارزا في انتشار الاستشراق ومعاهده ومراكزه في أنحاء العالم ، وكان حقا على من يريد دراسة موضوع الاستشراق ببصر العالم وبصيرة الناقد ودقة الباحث أن بتنبه إلى هده الدوافع وتأثيرها البالغ في حركته.

د. الدوافع الإيديولوجية :

وهي خطيرة ونافعة في الوقت نفسه إذ اندفع الإنسان إلى دلك الصراع الفكري المتواصل الذي لا يهدأ ولا يستكين لا انقطاع فيه وتلك سنة الحياة التي تدفع الإنسان للصراع حتى مع نفسه وأخيه وصديقه وعدوه وعشيرته ومجتمعه وحتى العالم بأسره [3] .

وتكمن هده الدوافع في وجود الإيديولوجيات المختلفة ، إيديولوجية الأفراد والجماعات والدول والحكومات والأجناس والقوميات الخ...

وكل منها تسعى لتفرض نفسها على غيرها وتسيطر عليه ويهدف صاحبها إلى أن يكون رئيسا والأخر مرءوسا ، وينصب نفسه سيدا وغيره مسودا ، وبعيش غنيا ويترك الفقير يموت جوعا .

---

(1) أربري، سبق ذكره ص 14 .

(2) أبو الحسن الندوي ، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ص 93 إلى 104.

(3) ياكوب باريون ، ما هي الإيديولوجية ط1 ، 1971 ص 195. ترجمة أسعد رزق ، دار العلمية .

ولو أخذنا في الاعتبار إن للاستشراق هدفه وفلسفته وأنه لم يبدأ مصادفة ولا اعتباطا << بل نشأ حسب خطة موضوعة " [(1)].

فمن الجلي أن أسبابا أيديولوجية تكمن وراء كل ذلك ، يكفي دليلا أن الغرب لم يتردد في سبيل تحقيق أهدافه الإيديولوجية في إستخدام جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة قانونية كانت أو غير قانونية خيرة كانت أم شريرة حتى أرسى قواعده الإيديولوجية التي أعماله ومنها " الغاية تبرر الوسيلة " ، " فرق تسد " ، " إقتل تعش " ، " حارب تسيطر " ، " إغتصب تملك " وما أكثر أمثال ذلك في فلسفة ماكيبافيلى ونيتشه وهرتزل وغيرهم ومن هنا لا نشك في أن الدافع وراء العناية بدراسة اللغات بجميع ألوانها دافع أيديولوجي محض ، وقد بدأت الدراسات الغربية على هذا النحو في العصر الوسيط لخدمة العمل التبشيري ثم أهملت بعد ذلك إهمالا تاما بعد سقوط غرناطة في عام 1492 ، وبعد أن أصبحت الأقلية الوحيدة الموجودة بها من الأمور الذين يتكلمون لغة من أصل لاتيني ، ثم عادت إلى الظهور مندمجة هذه المرة في الدراسات السامية حيث كانت الكنيسة مهتمة بوحدة الكنائس الشرقية ثم جاءت الحركة الإنسانية بما تنشده من ثقافة شاملة ، والمصالح السياسية والتجارية لتوسع من هذا الاهتمام فيشمل مجموعة من الدراسات الإسلامية .

وقد كانت هذه الأسباب الإيديولوجية دفعا قويا في زحف الغرب على الشرق وتعلم لغاتهم وبحث أثاره ومحاربة أفكاره وأيديولوجيته ، ولقد تبلور هذا كله في غزو الغرب الفكري الذي كان يرمي إلى إضعاف الشرق عامة والعالم الإسلامي خاصة ليقتلعه من جذوره ويزيله من وجوده وما من شك في أن الدوافع الأيديولوجية كانت إحدى بواعث الإستشراق القوية وانتشار أفاقه في أنحاء البلاد الأوروبية وبين مواطنيها ، " تلك حقيقة ، لا مراء ولم يخف على الغرب ، أنه من غير المستطاع انتزاع العواطف من أفئدة الناس ، وليس من الممكن استئصالها بحملة عسكرية أو انتشاء محكمة تفتيش أندلسية جديدة لمحاربة أراء الناس ولغاتهم وضمائرهم وعلاقاتهم فالمسألة كلها فكرية وعلمية ، ومحاربتها يجب أن تكون على أسلوب نشأتها : ثقافة وغزوا وفكر ،من أجل هذا نشأ الإستشراق في بلاد الغرب ، وأخذ جماعة من

(1) أحمد الشرباصي التصوف عند المستشرقين .ص 7.

الغربيين يعكفون على لغات الشرق وتاريخه ودينه دراسة واستذكارا وحفظا وتحقيقا وتغلغلا في البحث والتنقيب ولينفذوا من وراء ذلك إلى الوصول إلى الغاية التي يعملون من أجلها (1)

لذلك كله نعتقد أنه ليس غريبا على الإطلاق أن يكون للدوافع الأيديولوجية أثر عظيم في ميلاد الاستشراق واتجاهاته المختلفة .

هـ - الدوافع الدينية :

التي كثيرا ما تحرك الإنسان وتدفعه إلى الأمام ، إن لم تكن كذلك في جميع الأحيان فالنزعة الدينية تحث صاحبها على الدوام إلى طلب العلى وبلوغ الغايات السامية وهي التي ترسم معالم حياتهم تتحكم في تصرفاته ، وإذا كان الفلاسفة وعلماء الاجتماع لم يحددوا دور الدين في التحولات التاريخية تحديدا كاملا فمن المؤكد أن الدوافع الدينية قد لعبت دورا خطيرا في نشأة الإستشراق وميلاد فلسفته واتجاهاتها .

عندما جاء الإسلام وجد العالم بأسره في أزمة فكرية حادة وقلل روحي بالغ ، فحاول أن يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور ومن الباطل إلى الحق ومن التعصب إلى التسامح ، ومن الهدي إلى البناء ومن الفناء إلى الحياة ، وسرعان ما بدأت تدوي في الأقطار كلمة " الله أكبر " وترن في الآذان " إقرأ " ويضيء الطريق " اعملوا فسيرى الله عملكم " فبين في قرن ما لم يبين غيره في قرون وبدأ الناس حتى من غير أهله يتوافدون إلى مراكزه ومعاهده ليتعلموا فيها ومن أمثاله جرير ، وسكوت ، وبيكون وغيرهم ، جاء بعضهم ليستفيد ثم يفيد ، والآخر يتعلم ثم ليحارب ويهدم وسواء كان هذا أو داك فلم يكن لليهود أو للنصارى من سبيل آخر . إلا أن يتقبلا التحدي الكبير ويجبرا على دراسة الإسلام ولغته وآدابه ، وقد ظلت اللغة العربية لفترة طويلة لغة علم وثقافة وفلسفة وسبيلا واحدا للنهوض والازدهار وبدت أقوم طريق لفهم الكتب السماوية وفلسفتها فتسابق أصحاب الديانات الأخرى إلى تعلمها وتعليمها لمواطنيهم ودويهم وهكذا أصبح العامل الديني دافعا قويا لانتشار الاستشراق في العالم " إذا أنشئت في الغرب المعاهد والمدارس لتعليم لغات الشرق وأديانه حتى يرجى فضل دراسة اللغات الشرقية في الحقيقة إلى المرسلين المبشرين الموفدين إلى البلاد الشرقية من لدن الباباوات هؤلاء هم

(1) حسين الهراوي ، المستشرقون والإسلام ، المعرفة 932، ص ص 11 -12.

الدين حملوا معهم عند رجوعهم إلى بلادهم تلك اللغات ، وقد كانت المجادلة في العلوم والآداب ضمن دائرة الإكليروس المسيحي أي الرهبان وهم الذين قبضوا على ناصيتها واختصوا بها ومنعوا الجمهور من تداولها [1]

ويمكن للباحث أن يتساءل أكان يعلم هؤلاء العربية بسبب رغبتهم في التعرف على الكتاب المقدس ومقارنته بالقرآن الكريم فحسب أم أنهم تعلموها لأسباب أخرى كذلك ؟ إن الجواب على ذلك يؤكد أنهم اتجهوا إلى العربية لأسباب عديدة منها أنها أصبحت لغة العلم والفلسفة ولا بد للبرهان من معرفتها للدفاع عن العقيدة ومنع انتشار الإسلام الذي بدأ يزحق بالتبشير المضاد بالمسيحية في البلاد الإسلامية نفسها واستعادة ما يمكن استعادته " وحين نسأل التاريخ عن حركة الاستشراق والتبشير كيف نشأت ؟ يلقانا جوابه الصريح بأنها قامت أول ما قامت في رعاية الكنيسة الكاثوليكية لاشراق المباشر من كبار أحبارها " [2]

ومن هنا يتبين أن الدوافع الدينية بكل ما فيها قوة واندفاع كانت إحدى الأسباب الرئيسية لتعلم الغرب اللغات الشرقية عامة ولغة الإسلام خاصة وظلت هذه اللغة بين القصيد في النشاط الرهبان لأسباب الدفاع والهجوم والاحتلال والاستغلال والحرب والسلام والتبشر والاستعمار ومحاولة تعميد أهل القرآن ، وإذن فالسبب الرئيسي المباشر الذي دعا الأوروبيين إلى الاستشراق هو سبب ديني في الدرجة الأولى ، فقد تركت الحروب الصليبية في نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة ... وجاءت حركة الإصلاح الديني المسيحي فشعر المسيحيون : بروتشانت وكانوليك بحاجة ملحة لإعادة النظر في شرح كتبهم الدينية ومحاولة تفهمهما على أساس التطورات الجديدة التي تمخضت عنها حركة الإصلاح ،ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالإسلامية ،لأن الأخيرة كانت ضرورة لفهم الأولى ،وخاصة ما كان منها متعلقا بالجانب اللغوي.

وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أديانا ولغات وثقافات غير الإسلام وغير العبرية ،ومن جهة أخرى رغب المسيحيون في التبشير بدينهم المسلمين فأقبلوا على الإستشراق ليتسنى لهم إعداد الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامي [1] وأخيرا نرى أن هذه الدوافع

---

(1) يوسف جيرا ، تاريخ دراسة اللغة العربية بأروبا ، مطبعة الشبان بيروت 1929 ص 7.

(2) عائشة عبد الرحمان ، تراثنا بين ماض وحاضر ، معهد البحوث والدراسات العربية ص 52 .

(3) محمد البهى ، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي ص 533

الدينية قد حملت في طياتها أهدافا عديدة وغايات مختلفة وعلى الرغم من ذلك فقد ظل جانبها الرئيسي عبر العصور واحدا ألا وهو مواجهة الإسلام والهجوم عليه ،ويبدو أن التطورات الأخيرة التي قفزت بالعالم كله إلى أفاق جديدة أوسع مدى وأرحب أفقا من ذى قبل لم تغير كثيرا من اتجاهات العقلية المسيحية وسياسة روما البابوية مما يدل على أن الرهينة المسيحية لم تتقدم كثيرا إلى الأمام وإن تقدم الزمن وتغايرت الأيام.

و-الدوافع الاستعمارية :

وهي بلا شك تمثل النقطة الخطرة في العلاقات بين الشرق والغرب ومحاولة الأخيرة السيطرة على الأول وسحق قوته واحتلال أرضه واستغلال مقدراته ، ولهذه الدوافع جذور عميقة زرعت ونبتت قبل الميلاد ،ونمت بعده وازدادت عمقا وشمولا مع اندفاع العرب وسيطرة الإسلام على الإمبراطوريات السابقة ووصوله إلى أوروبا واستقراره في بعض أراضيها،عندما رأى الغرب كل هذه شرع يعد قوته لخوض معركة فاصلة معه والسيطرة عليه ، فأخذ يتعلم لغته وآدابه وحضارته وتاريخه لكي يتفوق عليه ثم قام بمغامرات صليبية معروفة فحارب الإسلام قرون ولم ينتصر ، ولكن عندما نجح في طرده من الأندلس لم يكتف بذالك ،بل واصل استعداد ه لمواجهة الإسلام في عقر داره واحتلال بلاده والسيطرة عليها.

ويعترف الإسلام نفسه أن أشد ما يخشاه هو الإسلام وانتشاره لأن له قوته وجلاله وأنه الوحيد بين الأديان والمذاهب ، الأيديولوجيات الذي يستطيع أن يقف في طريق أطماع الغرب وسيطرته على العالم سياسيا وحضاريا ودينيا وفكري ومن هنا تبرز لنا غايته وهدفه من الاستشراق ،وكان لابد للغرب المستعمر من معرفة ما يمكنه معرفته من أحوال هذا الشرق ومداخل السيطرة عليه والاستبدادية [1] ولذلك كله تلقف الاستعمار هذه الحركة وكان ملوك الدولة الاستعمارية رعاتها وكان قناصلهم في بلدان المشرق عمالها [2] ولو تتبع الدارس الأمر بشكل أكثر عمقا وشمولا لوجد فيه شيئا من الغرابة إذ سرعان ما اتخذت أهداف المبشرين مع أغراض المستعمرين وجدوا معا في بناء ذلك الصرح الاستعماري الذي ظل كابوسا رهيبا يجثم على صدور الشرقيين ويكتم أنفاسهم واقتنع المبشرين زعماء الاستعمار بأن

---

(1) أحمد الشرباصي ، سبق ذكره ص 7.

(2) زكريا هاشم زكريا ، المستشرقون والإسلام المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ص20.

< المسيحية> ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم حمايته ،وزودهم بالمال والسلطان ،وهذا هو أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين ثم اتصل بالاستعمار [1] الذي كان سندا قويا لا يستهان به وحصنا منيعا يعتمد عليه وسلاحا حادا ينفد به إلى أهداف شتى وضعت في برنامج الاستعمار ،والاستشراق معا وعلى الجملة مكن الاستعمار للمستشرقين في البلاد الخاضعة لحكمه أو نفوذه لينشروا فيها فلسفتهم ويحققوا أهدافهم.

ر-الدوافع العلمية :

وهي ذات شأن عظيم في حركة الاستشراق لأن العالم العربي يعد كنزا حضاريا لا نظر له في بقاع العالم الأخرى ،ففيه شدة حضارات وثقافات ،ونشأت لغات وفلسفات وولدت علوم وفنون ونزلت شرائع وأديان ، وقد أثارت هذه القيم علماء الغرب فاهتموا بدراستها واكتشاف أسرارها ، وتحقيقا لهذه الغايات السامية أيقن الغرب أنه لابد له أولا إذا أراد النهوض أن يدرس لغات الشرق وآدابها وحضارتها وخصوصا حضارة الإسلام وما حققه هذا الدين ورجاله من أهداف سياسية واجتماعية وأخلاقية وثقافية فأقبل المستشرقون على هذه الدراسات بهمة وشغف وانطلق كثيرا منهم إلى أفاق بناءة استفادة منها الشرق والغرب على حد سواء ومن الجلة أن الباعث على دراية اللغات الشرقية في أول الأمر كان دينيا وحربيا في القرون الوسطى ،ثم تحول بعد ذلك إلى أغراض علمية هدفها كشف ما تكنه العلوم والفنون الشرقية من كنوز ثمينة وبتقدم هده الدراسات اتصل حبل المودة بين الشرق والغرب وتوثقت العلاقات العلمية بين الدول الشرقية والغربية وكان للمستشرقين فضل في تنبيه الأفكار بمؤلفاتهم إلى إدراك الحقيقة الخالدة التى طالما أنكرها الغربيون وهي أن المدينة الأوربية الحديثة مبعثها الشرق وعلومه وحضارته وفلسفته [2]

ولا ريب أن الاستشراق قد أبلى بلاء حسنا في خدمة الإنسانية بأسرها متأثرا بهذه الدوافع العلمية الكامنة في نفسه ، والتي كانت إحدى الأسباب الرئيسية لميلاد حركته ونشأة فلسفته ولكن الفضل يعود أصلا إلى علم العرب وثقافتهم ، ويصرح بعض الفرنسيين بذلك فيقول " إن

---

(1) محمد البهى ، سبق ذكره ص 533.

(2) يوسف جبرا ، سبق ذكره ص 52.

ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا أنه يدين لها بوجوده نفسه ...إن ما ندعوه العلم الحديث ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء ، مستحدثة لمنهج التجريب والملاحظة والقياس والتطور العلوم والرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان وهذه الروح وتلك المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوربي [1] وانطلاقا من هذا الأساس أقبل الغرب بعلمائه على الشرق يبحثون وينقبون ويكتشفون وينشؤون المتاحف ومعاهد العلوم ، ومراكز البحوث ، وكراسي اللغات ، وأقسام الآداب ، وشعب التاريخ والأديان ، " هناك أمثلة كثيرة توضح هذا الاستشراق العلمي المنظم نذكر منها البعثات الثلاث التي قدمت إلى الأندلس ، أولها بعثة فرنسية برئاسة الأميرة إليزابيث ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا ، والبعثة الثانية إنكليزية وعلى رأسها الأميرة دوبان ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة ويلز ... أما البعثة الثالثة فكانت إسبانية وبعضها من مقاطعات من مقاطعات سفوا والباقة وساكسونيا والدين [2] .

وقد استفادت أوربا من هذه البعثات العلمية فائدة لا تقدر ، حيث أصبح أفرادها بعد عودتها من الأندلس شعلة علمية تضيء غياهب أوطانها ومجاهل أراضيها وأخذت تنشر العلوم والفلسفات والآداب والحقائق فدفعت بشعوبها إلى الأمام خطوات عبارة لا يمكن التغاضي عنها عند النظر في تطور العلم في العالم وأثرها في النهضة الأوروبية المعروفة التي أثرت هي بدورها في العالم بأسره ، وكذلك .... إلى بلاد الأندلس طلاب العلم من أنحاء أوربا فالتحقوا بمدارسها وجامعاتها وانتفعوا بدور الكتب الكثيرة بهائم عادوا إلى بلادهم ونشروا فيها علوم العرب وثقافتهم وبلغ من اهتمام الغربيين بالعلوم العربية أن أنشئوا في باريس في القرن الثاني عشر الميلادي مدرسة لتعليم اللغات الشرقية وقد ظهر من الأوروبيين علماء تشبعوا بعلوم العرب وطرق بحوثهم نخص بالذكر منهم العالم الإنكليزي روجربيكون الذي دعا الناس إلى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والاعتماد على التجارب للوصول إلى

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المدينة الإسلامية وأثاروها في الحضارة الأروبية ، دار النهضة المصرية 1963 ص 128 .

(2) علي حسني الخربوطلي ، سبق ذكره ص 34.

الحقائق العلمية فبدأ الأوروبيون يبحثون العلوم بحثا علميا كان له أثر عظيم في قيام النهضة العلمية في أوروبا ورقي الحضارة الغربية [1]

ونعتقد أنه قد تأكد حتى الآن .... الدوافع العلمية من الأهمية للاستشراق ونشأته وحركته فضلا عما لها من الإسهام الفعال في التفاهم بين الشرق والغرب وتنمية العلاقات الإنسانية فيما بينها .

وبعد ، فقد استبان أن هذه الدوافع الرئيسية وتلك الأسباب الفرعية قد أدت جميعها إلى ميلاد الاستشراق وازدياد الاهتمام به ، حيث بدأ العلماء والباحثون والرحالة و التجار والمبشرون والدبلوماسيون وغيرهم يتدفقون على الشرق ويشغلون أنفسهم بدراسة لغاته وآدابه ويشرحون فلسفاته ، وقد كان لهذه العوامل أثرها الكبير في ميدان الاستشراق فالبابوية ومعها كثير من المسحيين كانت مهتمة بوحدة الكنائس ساعية إلى الاتفاق مع مسيحي الشرق على ذلك ، الأمر الذي كان يقتضي دراسة لغاتهم ونصوصهم ، أما إنجلترا وفرنسا وممالك البلاد المنخفضة المتحدة فقد كان تولى اهتماما متزايدا باستخدام للمواصلات بعض العلماء الموارنة إلى أوربا ... كذلك كان تفسير نصوص الكتاب المقدس أحد الموضوعات الهامة في المناقشات التي دارت بين البروتشانت والكاتوليك وكان ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى دراسة فقه اللغات الشرقية وبرغم النزعة " المعادية للعرب " ظل الأطباء على اهتمامهم بطب ابن سيناء كما دفع الخطر التركي الأوربيين إلى دراسة الإمبراطورية العثمانية والإسلام عن كثب .

هذه العلاقات الوثيقة وهذه الاهتمامات الزائدة تفسر مولد شبكة استشراقية محكمة العدى [2] .

---

(1) حسن إبراهيم حسن، الفتوح الإسلامية وأثارها في تقدم المدينة ، الرسالة 20 أفريل 1936.

(2) رودنسون، سبق ذكره ص 68.

5- أهم المستشرقين:

لقد شهد القرنان التاسع عشر والعشرون دراسات كثيرة وجادة للمستشرقين وإذا كان بعضها قد أثار ومازال الكثير من الجدل وشاب بعضها الآخر نوازع العنصرية أو أطلت منها روائح الأهداف القديمة مما جعل البعض بصدف عن هذه الدراسات في مجملها ، فإن الكثير منها اتسم بالموضوعية وبالجهد العملي المنظم وبالمناخ الذي يبعث على الإعجاب بقدرة العلماء على المثابرة على هدفهم وإفناء العمر في سبيله ولا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من الإعجاب عندما يعلم أن واحدا مثل المستشرق الألماني أ/ تيودور تولدكه (1836- 1930) قد خلف حول الدراسات الغربية والشرقية أربعة وعشرين كتابا ونحو سبعمائة بحث وأنه ظل محافظا على عقلانيته وتجرده في مواجهة من بهتم ويختلف معهم منن الانتماء وأن تلميذه [1] كارل بروكلمان (1868-1956) قد عكف على تاريخ الأدب العربي يجوب مكتبات الدنيا كلها يبحث عن مخطوط أو مؤلف بالعربية حول الأدب والفقه والطب والعلوم والرياضيات فيحدد أماكن وجودها ويعطي نبذة عن مؤلفها ولا يقف عند الأدب القديم بل يتابع الأدب العربي الحديث بدءا من أواخر القرن التاسع عشر ويجمع كل هذا في كتابه الضخم القيم " تاريخ الأدب العربي " ويتابعه بملاحق يصدرها حتى عام 1942 موفرا وحده بذلك جهود عشرات الباحثين وفاتحا الطريق أمام مئات الموضوعات للبحث والاستقصاء [2]

ولا يقل الأمر إثارة للإعجاب عند واحد من المستشرقين الإسبان مثل أسيني بلاثيوس الذي ترك بدوره .... وخمسة وأربعين كتابا وبحثا حول الفكر العربي ، عالج فيها موضوعات متعددة مثل الفلسفة والتصوف والتاريخ والدين والأدب [3] .

ب/ ريجيس بلاشير : كان بلاشير أحد المستشرقين ، الذين قضوا فترة طويلة من فترات تكوينهم الثقافي والوجداني في شمال إفريقيا ، فقد رحل إلى المغرب في الخامسة عشر ، وحصل على شهادته الجامعية في اللغة العربية من كلية الآداب بالجزائر سنة 1922 ، مارس

---

(1) أحمد درويش ، الإستشراق الفرنسي والأدب العربي ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة ص ص 27، 45-46.

(2) المرجع نفسه ص 46 .

(3) المرجع نفسه ص 46 .

تدريس اللغات الشرقية في باريس سنة 1935 ومن خلال مقامه هناك أعد رسالتين لنيل درجة الدكتوراه وكانت إحداهما عن أبي الطيب المتنبي والثانية عن صاعد الأندلسي ظل النشاط العلمي لبلاشير مزدهرا حتى وفاته في الثالثة والسبعين ، من أهم مؤلفاته تاريخ الأدب العربي من البداية حتى نهاية القرن الخامس عشر.

ج/ زيغريد هونكة :

باحثة ألمانية شهيرة رحلت عن عالمنا قبل سنوات قليلة ،وهذه السيدة من أنبل الشخصيات النسائية العلمية التي أعلنت تمردها على <المسلمات > الغربية السلبية التي روجت عن الإسلام وحضارته وكسرت أغلال التضليل الذي هيمن على الإستشراق الأوروبي تجاه الحالة الإسلامية .

عرفت "هونكة " في العالم العربي بأنها صاحبة كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب "وهو أشهر كتاب غربي وضعه مستشرق معاصر ينتصر للحضارة الإسلامية وعطائها التاريخي وقيمتها وعباداتها ولغتها ومنظومتها التشريعية والثقافية الضابطة لحياة مجتمع متحضر ،وهي الحضارة التي علمت العالم كله كيف يكون التحضر ،ولقد ترجم هذا الكتاب الفذ إلى سبع عشرة لغة ...بما فيها العربية بالطبع ووزع منه أكثر من مليون نسخة

هونكة الباحثة النبيلة المتحررة حقا والتي ودعت العالم عن عمر يناهز الثمانين عاما ، كشفت بطرق غير مباشرة قضايا المرأة ومشكلة حريتها [(1)]

6- مضامين أدب الإستشراق:

أ/ تقديم المعلومات عن المشرق :كتبت في زاوية سابقة عن علم الاستشراق الذي قدم للحملة الاستعمارية الأوروبية على الشرق ،وخصوصا العربي والإسلامي ،كل التسهيلات المعرفية اللازمة التي مكنت أروبا الاستعمارية من السيطرة على بلادنا لأكثر من قرن كامل ، ولكن المستشرقين يدافعون عن علمهم ويتمسكون بالدافع العلمي له واعترافهم بلا أخلاقيات حكوماتهم التي وضعت علمهم ذاك في هذا الموقف الحرج .

ب/ نقل المعلومات عن الحضارة العربية (تصوير المدن والآثار):

ولكن نظرة عن قرب لبعض هؤلاء الأوربيين الذين أتوا إلى بلادنا تضعا في حيرة مما جاءوا من أجله ، أحد هؤلاء كان فرنسيا ويدعى < تيوردور لاسكاريس > جاء إلى مدينة حلب عام 1809م وتعرف إلى شخص حلبي هو فتح الله الصايغ وطلب منه أن يعلمه اللغة العربية ،كان لاسكاريس يرتدي الثياب العربية وأطلق على نفسه اسم الشيخ إبراهيم .

ويبدوا أن أكثر من مستشرقين (وأضعها بين قوسين) استهوته مدينة حلب أيضا وبدأ منها مغامراته (الإستشراقية) فقد سبق لاسكاريس بذلك الشهير لورنس الذي كني بلورنس العرب وإذا بحثنا عن سبب مقنع لهذا الهوى بالانتماء إلى المدينة عرفنا من لورنس ذاته أن بين الحلبيين نسبة كبيرة من ذوي الشعر الأشقر ولن يشك أحد بالأوروبي بسبب لون بشرته وشعره وربما عينيه أيضا .

المهم أن لاسكاريس طلب من فتح الله الصايغ أن يخرج معه إلى البادية للتجارة مع البدو فخرجا عام 1810 ببضاعة اشترياها من أسواق المدينة وراحا يجولان في بادية الشام وفي صحراء العراق وإيران وحتى وصلا إلى حدود إيران الشرقية حيث قابلا شيوخ قبائل عرب الهند ويقال إنهما زارا الدرعية التي كانت عاصمتها الوهابيين في ذلك الزمان

لم يكن الشيخ إبراهيم (لاسكاريس) يبيع أو يشتري مع البدو مما أثار استغراب رفيقه بل كان يطلب منه أن يسجل كل ما يطلب منه أن يسجل كل ما يشاهدانه أو كل ما يحدث لهما .

وبالفعل فقد كان هم ذلك الفرنسي هو التعرف إلى شيوخ القبائل ورسم طرق الصحراء وتحديد مواقع أبار المياه على الخارطة.

هذه المعلومات استفاد منها نابليون لمواجهة الإنجليز ،فقد كان نابليون آنذاك يطمح ،بعد أن فشلت حملته على مصر ،في أن يقطع طريق الهند على الإنجليز فأرسل جواسيسه لدراسة طرق أخرى غير التقليدية منها ،لقد فكر باحتلال بلاد الشام والعراق حتى البصرة ومهمة لاسكاريس هذا كانت جمع كل المعلومات اللازمة تمهيدا لهذه الحملة ومنها طبعا التقرب من زعماء العشائر وإغراقهم بالهدايا وقد نجح لاسكاريس في هذا حتى أنه كان يشارك في غزوات البدو ويحضر مجالس الصلح بين قبائلها .

استمرت أربع سنوات بينما كان المعلم يكتب مذكرات أخرى لم يستطع أحد إن يجد لها أثرا فيما بعد ، وربما كان يرسلها إلى سفارة بلاده في مصر ومنها إلى باريس أولا بأول ، المهم أن نابليون أقلع عن خطته بعد هجومه الفاشل على روسيا ولم يعلم لاسكاريس بضعف إمبراطوره البالغ إلا في نهاية رحلته فرحل إلى القاهرة حيث وافته المنية ، أما فتح الله الصايغ فقد حزن لمصير معلمه وعاد إلى مدينته رجلا عاديا يتسكع في شوارعها

أما رحلة لا مرتين فقد وظف فيها ما وجده عنده الشخصية المعلومات عن العالم العربي والعرب والطرق والحركات ، وصور الآثار (حلب) ،ففي عام 1832م وبينما كان الشاعر الفرنسي لامرتين يجول (هو أيضا)في الشرق قام بالبحث عن فتح الله الصايغ الحلبي واشترى منه مذكراته تلك وقام بترجمتها إلى الفرنسية وصدرت في الجزء الرابع من كتابه <رحلة على الشرق > ثم إنه حرص على أن تكافئ الحكومة الفرنسية مؤلفها(لأجل الخدمات التي قدمها لعلم الجغرافيا وأخلاق الأمم) حسب تزكية لامرتين نفسه ، فقامت القنصلية الفرنسية بحلب تعيينه موظفا فيها

ولكن العلماء الفرنسيين راحوا يشككون بصحة هذه المذكرات وادعى البعض إن فتح الله قام بتلفيف الرحلة ، بهدف بيع أي شيء إلى ذلك الشاعر الفرنسي المهووي بالشرق ، فكتب المذكرات من وحي الخيال وأنه لم يبرح مدينته قط .

إلا أن باحثا سوريا جادا هو الدكتور يوسف شلحد قام بتحقيق المذكرات وأثبت صحتها ثم بنشرها تحت عنوان <رحلة فتح الله الصايغ الحلبي > بينما قام الكاتب الفرنسي جان سويلان بتأليف رواية عن الرحلة بعنوان < لا سكاريس العرب >

II. الرحلة :

1- مفهوم أدب الرحلات :

أدب الرحلات بكسر الراء وتسكين الحاء كما أورده مجدي وهبة في معجمه [1]من أبرز المصطلحات التي تنسب الأدب إلى موضوعه [2] وهو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة أو يجمع بين كل هذا في أن واحد [3] وهو من المصطلحات الفضفاضة إلى حد كبير ، إذ يحوى موضوعتين كبيرتين هما:موضوعة الأدب (الأدبية) بما هي مفهوم فني جمالي ، وموضوعة الرحلة بما هي تجربة تعلن عن سرد الأشعار ، وتتضمن معنى الذهاب بعيدا عن المواطن الأصل ، كما تفتح أفق انتظار يرتبط بالنوع نفسه ، أي أن القارئ ينتظر وصف للبلدان التي زارها صاحب الرحلة وينتظر القارئ كذلك ذكرا لخصائص البلدان وعاداتها وطقوسها (....) الرحلة جولة في الفضاء (....) الرحلة وصف قد يكون وصفا ماديا لكل ما يراه الرحالة ، وقد يكون وصفا معنويا لكل ما يعانيه من مشقة .

فالرحلة نقلة ،في الزمان إذا كانت بالفكر أو الخيال ، ولكن الرحلة الحقيقية رحلة في المكان وسرعان ما تصبح بالضرورة رحلة في المكان والزمان معا لأن المكان الإنساني يحمل معه بالضرورة زمانا خاصا ، فلكل مكان زمان ، وتتأكد هذه المقولة إذا تنبهت إلى أن المقصود بالمكان ، في معظم أنواع الرحلات ، هو مكان المجتمع الأخر أو الثقافة الأخرى ، والمجتمع والثقافة كائنات زمانية بالضرورة وفهم الحاضر فيها يتطلب بالضرورة معرفة الماضي بل وتشوقانها نحو المستقبل أحيانا (....) والرحلة قد تبدو معرفة بالجزء ، ولكنها في الحقيقة معرفة بالجزء في إطار الكل ، ليس فقط الكل الذي ينتمي إليه هو ، بل الكل الذي تنتمي إليه أنا وهو سواء أكان ذلك الكل متبق أو غير متبق ، لأن رحلتي إلى مكان ما هي في الوقت نفسه رحلة إلى مكان يوضع في مكانه بين أمكنة مختلفة ، وهي كذلك رحلة إلى مكان

---

(1) وهبه ، مجدي : معجم مصطلحات الأدب (إنجليزي ، فرنسي ، عربي) ، مكتبة لبنان – بيروت 1974، ص 577.

(2) اميل ، بديع يعقوب ، ميشال عاصي ، المعجم المفصل في اللغة والأدب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط 1 1987 ، ج1 ، ص 60 .

(3) عبد الفتاح كليطو : الحكاية والتأويل . دراسات في السرد العربي – دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ط2 ، 1997 ، ص ص 72-73.

بالقياس إلى مكان أصلي هو مكاني أنا ، الذي أبدأ منه وأرحل لأعود إليه فالرحلة بالضرورة ذهاب وعودة ، وهي عودة نهاية عند انتهاء زمنها ومغادرة المكان [1] وهي بهذه المعنى تنضوي تحتها مفاهيم كثيرة كالعمق والإثارة والاكتشاف ، واكتشاف الآخر بعوالمه المتباينة ، وهذا يعني أن على الرحالة أن يحمل بين جنبيه التميز والتفرد والأصالة ، ومتى كانت هذه هي صفاته في مشواره الترحلي لم تقف الرحلة عند مجرد الانتقاء من هنا إلى هناك [2]

لأن " ما يعم في الرحلة ليس هو لحظة الانطلاق ولا الإشباع الذي يحيل عليه الوصول . إن ما يشكل عمق الرحلة هو الحيز الفاصل بين بدايتها ونهايتها ، حيث تعاقب الأحداث وخطية الزمن ، وتوالي المشاهد الوصفية واللوحات التصورية للآفاق البعيدة والتنقل في الزمان والمكان والترتيبات الاجتماعية . وهي من حيث كل هذه المواصفات الثابتة تعتبر إحدى البنيات التخيلية الأكثر التصاقا بإصدارات الكتابة الروائية في الأدب الإنساني قديمة وحديثة ، وهي بنية كحائية مفتوحة على الطريق الطويل الحافل بالمفاجآت والمحطات والحواجز ،فنفس القوة التي تدفعنا بها الرحلة دفعا نحو المجهول والمغايرة والخارج عن المألوف ، هي ذاتها التي تقودنا إلى استحضار واستعادة الطقوس المسارية التأهيلية والتعليمية التي يسعى من خلالها الكائن للانتقال من حضيض الرغبات والأهواء ، إلى مدارج علوية من الجهاد الروحي والفكري ، والحضاري [3] ذلك أن البحث عن المعرفة كان هم الإنسان مند القديم ، فكانت الرحلات الباب الواسع للمعرفة والثقافة ، والكشف عن الأسرار خاصة وأن قلق السؤال ظل يؤرق الإنسان على مر الزمان ، فهذا جلجامش أفنى جل عمره يبحث عن سر الخلود وير الحياة والموت ويجوب الأفاق لمعرفة الأسرار كما تصور الملحمة

وللسبب نفسه كان الرحيل هاجسا لا يقر ولا يهدأ في ضمير الشاعر الجاهلي فهو راحل أو مزمع على الرحيل في كثير من الوقت أو متأمل من يرحل وما يرحل (الظعائن ، العمر ، القبائل ، الأهل ، الرفاق ، الحياة نفسها [4]

(1) عزت ، قرني : رحلتان . مجلة فصول (الأدب والإيديولوجيا) . ج2 . المجلد 5 ، العدد 4 . يوليو أغسطس ، سبتمبر – 1985 – ص 119 .
(2) عتيبة ، منير : السياحة ضد أدب الرحلات ، متاح على الشبكة [21/ 11/ 2004] www.el .byan .com
(3) على كابوس ، عبد العالي اليزمي : " كتابة الرحلة ورحلة الكتابة " قراءة في الطريق السيار لـ ح . الحميداني " مجلة علامات ، العدد 15 ، 2001 متاحة على موقع سعيد بنكراد .
(4) رومية وهب أحمد : شعرنا القديم والنقد الجديد ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، العدد 207 ، مارس 1997 ، ص 271

هذا لا يعني بأي حال من الأحوال" أن الذات الجاهلية كانت مدمرة ، ولكنها كانت قلقة مأزومة يؤرقها الغموض حينا ، ويرهقها الوعي حينا ، وقد تضيق بوعيها فتغترب اغتراب جريحا حينا ثالثا ، ولكنها في أحوالها جميعا عاشقة للقوة مؤمنة بها كثيرة الالتفات إلى الأخر لا تكتفي بالنظر في مرآتها بل تتوق النظر في مرايا الآخرين " [(1)] لذلك تخلد للأسفار وشق القفار واعتساف الفلوات ، فالشاعر حين يصف عناء الرحلة (ليس لطلب المثوبة على العتب ، بقدر ما هو عمل شبه قصصي يحمل على التشويق والمتابعة وعلى اشتراك الآخرين في أحاسيس الشاعر ، ولو كانت الغاية مجرد وصف التعب لكان الإيماء السريع إليه كافيا ، ولما استطرد الشاعر إلى وصف الحيوان البرى وذكر الطرد وما شابها ذلك) [(2)] ولأجل كل هذا لا تذكر الرحلة إلا في المقدمات الشعرية ، بل ويمكن أن الحكم على أن رحلات الشاعر الجاهلي هي رحلات ذات طبيعة خاصة لأنها أولا نص شعري ، وثانيا ذات نظام وبناء خاص ، لا يكون السفر فيها المقصود الأول بل القصيدة ، نظر الهيمنة الشعرية على الرحلى .

وخلاصة القول أن أدب الرحلات على حد تعبير محمد المر شديد الإثارة رحب الأفق يتفرد بشخصية خاصة وهي التنوع المفاجئ ، إذ فيه من التقطع والتوزع فوق ما فيه من التواصل والتكامل ويعود تقطعه إلى طبيعة الترحل والتنقل ، فيه إشباع للفضول وري للظمأ وتفاعل بين القارئ والكاتب ، وترابط بين الواقع والمتوقع وتكامل بين ما يرى الكاتب بعينه وما يرسمه الخيال للقارئ ، وهنا يكمن السحر الذي يمارسه الرحالة ويتعرض له القارئ فلا يطيق أن يقاومه ولا يقوى حتى على التلفت من شباكه [(3)] ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت هناك صعوبة في التعامل مع جنس الرحلة ، إضافة إلى كون " الرحلة تستفيد مثل باقي النصوص ، من التحولات الأجناسية من جهة ومن جهة تطورات الجنس ذاته من جهة " [(4)] فهذه الرحلة كانت بدايتها مجرد انطباعات وملاحظات يسجلها الرحالة عن الأماكن والشعوب التي زارها في رحلاته ومغامراته ، ثم أضحت مذكرات يومية يصف فيها الرحالة العربي مسار رحلته ، من ذلك مذكرات التاجر سليمان الذي يعد بحق رائد الرحلات البحرية [(5)] تماما

(1) المرجع السابق ص 272
(2) الجوز ومصطفي : نظريا الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية) نظريات التأسيسية ومفاهيم ومصطلحات ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1، 2002، ج2 ، ص ص 172 ، 173.
(3) طليمات غازي مختار : محمد المر وأدب الرحلات متاح على الشبكة [22 / 9/ 2004] .com. www.arabicstory
(4) مؤدن عبد الرحيم : رحلة أدبية أم أدبية الرحلة؟ متاح على الشبكة [21/ 03 /2005] Wanakd.aljabriabed.com. www.fikr
(5) فؤاد قنديل ، أدب الرحلة في التراث العربي . مكتبة الدار العربية للكتاب – القاهرة ، ط2 ، 2002، ص ص 75- 98 ..

كما يعد الفقيه أبو بكر ابن العربي (543هـ) أول من وضع أساس أدب الرحلات وهو يقدم مادة ضخمة تحفل بالمعلومات الثقافية والاجتماعية عن البلاد التي طوق بها ، وهو أول من استخدم لفظ <الرحلة > في عنوان مؤلف وذلك في كتابه <ترتيب الرحلة > [1] وبعده يأتي ابن جبير أيضا الذي كان له فضل تأصيل هذا الأدب من خلال الصياغة العالية وبعده ابن بطوطة الذي جاء ليقدم نمط جديد ينحو منحى الغرائبي في السرد والذي تعد رحلته بحق رحلة نموذجية إذ فيها تتحقق كل الخصائص البنائية للنص الرحلى .

تشكل الرحلة جنسا أدبيا يتسم بالطرافة ويمتاز بجمعه بين الإفادة والإمتاع ، فقارئ الرحلة لا يطلع على العالم الذي ينقله إليه المسافر صاحب الرحلة فحسب ، بل بتعرف على أفكار وتصورات ورؤى ذلك الذي يحدثه عن موضوع رحلته وينقل إليه مشاهدات من البلد ، أو البلاد التي ينتقل إليها.

يمكن القول إن الرحلة إنباء عن ذهنية الرحالة وتصوير لمكونات الوعي الثقافي " عنده أكثر مما هي حديث عن البلد موضع المشاهدة ، أو إخبار عن القوم أهل البلد أو الاقليم موضوع الزيارة.

والواقع أن الرحلة قبل كل شيء أنواعا ، وتكون نتيجة مجموعة من الأسباب والدوافع التي تتعاضد وتعمل على تهيئة الجو لحدوث الرحلة ، تلك أهم الأمور التي نسعى للحديث عنها في الفصل اللاحق ، وسنعرف فيه أيضا على الخصائص التي تميز الأدب الرحلى [1].

(1) للتوسع أكثر ينظر أيضا الخامسة علاوي .العجائبية في أدب الرحلة منشورات ص 60 وما بعدها.

2- أنواع الرحلة:

أ- الرحلة الواقعية :

وهي رحلة مباشرة وحقيقية تكون " ذات محددات مكانية وزمانية . سواء جرت على الأرض أو في السماء أو تحت الأرض أو في أعماق البحار " [1]

تتعدد هذه الرحلة بتعدد أهدافها وأغراضها ووسائلها . فأما من الناحية الوسائل فهنالك الرحلة البرية والرحلة الحرية ، وأما من ناحية الأغراض فهناك رحلة الدينية والرحلة التجارية وأخرى علمية ...

لهذه الرحلة جانب آخر نود الإشارة إليه .ألا يحتك الرحالة بواقع البلد الذي رحل إليه. وإنما يتجاوز حاضره إلى ماضيه ويدع ما حوله ويلمسه و بغوص في أعماق التاريخ بحثا عن حضارة اندثرت وخلفت ورائها شواهد ناطقة . أعجب بها قراءة أو من خلال بقاياها وكان ذلك حال إفرنج (وشنقتن) الأمريكي حين جاء اسبانيا رحالة في القرن الماضي فلم يعنه أمر إسبانيا أو الإسبان وإنما فتنته آثار الأندلس في الحمراء فاتخذ مقرا لجسمه وروحه ، يتفيأ ظلالها ويطرب لوشوشات مياهها ويتأمل أمجاد الأندلس الغابرة فدرس تاريخ العرب فيها . ومضى عبر شوارع غرناطة وبين سكانها الفقراء . وهم أقرب من فيها إلى عرب الأمس يلتقط من أفواههم عرب الأمس حكايات جدودهم ويرى في تقاليدهم وعاداتهم الماضي بخيره وشره ، وفتن بطبيعة غرناطة الفاتنة حيث تلتقي العذرية بأروع وأرخص ما حققه الإنسان من تهذيب لها وصقل مهابط جمالها وآثر أن يبقى فيها عمره وحتى آخر لحظة م حياته وكان من ثمار رحلته وإقامته في قاعات الحمراء أعظم مؤلفاته رواجا وشهرة وأمتعها جمالا وعذوبة : حكايات الحمراء [2]

ب- الرحلة الخيالية :

يقوم بها الباحثون عن المدن " الفاضلة " أمثال أفلاطون " الجمهورية " والفارابي في المدينة " الفاضلة " وسان مور في مدينة " الشمس " . وكامبانيلا في " القمر وإمبراطوريات الشمس وغيرهم وفيها يحكمون بمجتمع مثالي يسوده الوفاق والعدالة . وتختفي فيه النقائض

---

(1) فؤاد قنديل ، سبق ذكره ص 19.

(2) الطاهر أحمد مكي : الأدب المقارن وأصوله وتطوره ومناهجه مكتبة الآداب القاهرة ، ص 322.

والرذائل ، وتتساوى الثروات والإمكانيات ، وكل أمريء يؤذي الوظيفة التي تلاءم كفاياته وأفراده متضامنون فيما بينهم ، وهي قمة المجتمعات البشرية الممكنة والمأمولة ، وقريب منها الرحلة إلى الآخرة ، وفيها يقوم الفلسفة والمفكرون والأدباء برحلة خيالية خارج عالمنا ليعبروا بصورة رمزية عمالا يستطيعون التعبير به صراحة ، علما نحو ما فعل ابن شهيد الأندلسي المتوفى 427 هـ - 1035 م في رسالة " النوابع والزوابع وأبو العلاء المعري المتوفى 449 هـ - 1058 م في رسالة الغفران ، ودانتي الإيطالي متوقي 1321 م في الكوميديا الإلهية [(1)].

تمكنا أن نقسم الرحلة الخيالية إلى :

ج- الرحلة الغرائبية الأدبية : ونقصد بها تلك القصص الخيالية الشعبية مثل :

رحلات سندباد البحري التي تضمنها كتاب " ألف ليلة وليلة " وهي في ظاهرها رحلات عادية وطبيعية ، ولكن نتائجها على الحكي رحلات خارقة فوق طبيعية ، تخلق الدهشة الغرائبية وتضم الليالي العجيبة مضمونا عقدي أو أطروحة دينية ، تمتزج فيها المعتقدات الإسلامية لمثيلتها في الفكر الأسطوري والديانات الشرقية القديمة ... فهي لما تنطوي عليه من قدرة تعجبية تعذو مكونا أسلوبيا لا يمكن فصله عن نسق التخيل السردي دون أن يصاب بالاختلال والتفكك [(2)]

وكذلك نجد القصص الأدبية مثل قصة " ابن الطفيل " عن " حي بن يقضان " وروبن سون كروز دانيا ديفو Daniel Dufoe وكذلك الملاحم الشعرية والأدبية الكبرى التي تعد من أدب الرحلات مثل " ملحمة الأوديسا الإغريقية ، وملحمة " قلقامش البابلية " وملحمة " أبي زيد الهلالي العربية " ، وغريها ، واعتبرت هذه الروائع الأدبية من أدب الرحلات لأنها تنبني أساسا على حكاية رحلة يقوم به البطل لتحقيق هدف معين ، وهذا لا ينفي أن تلك الرحلات الخيالية الأسطورية قد إنبنت على بعض الوقائع التاريخية أو على شخصيات حقيقية وجدت في عصر ما .

---

(1) الطاهر أحمد مكي: سبق ذكره ص ص 323-334.

(2) شرف الدين ماجدلين : بيان شهرزاد ، التشكلات النوعية لصور الليالي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء – المغرب ، ط01 ، 2001 ص 158 .

د- الرحلة الصوفية :

تعتبر رحلة البطل أو هاجرته تجاوزا للتناقضات داخل نفسه أو مع غيرها ، فهي انقطاع عن ماضي أو عن واقع وهجرة واتصال بعالم أفضل ، إنها تجديد للحياة وبعث للقوى وترك الشهوات ، واللذائذ الدنيوية وتنقيب لكشف الذات الداخلية ، تعتبر رحلة البطل الصوفي عن بلوغ المكان المقدس وهو مكان تتخيله الأسطورة والكرامة والحكاية الخرافية لخلاف العالم الحسي ، كما تكون تلك الرحلة في معنى ثاني هي السفر، فرحلة البطل الصوفي أو سفره هو هجرته وتفريده أو رحيله إلى الله ، وهي رحلة داخلية ، إنها سفرا إلى الله أي إلى الكمال والتفريد" [(1)] وتتطلب تجربة معيشة على المستوى الواقعي وأخرى ذهنية لعالم متخيل يجنح إلى صوغ أفكار وتأملات معينة .تنسجم مع المقولات والتصورات الصوفية والفلسفية والدينية التي ترسم رحلة النفس في بحثها عن عالم آخر يكون بديلا عن الواقع ووصولا إلى المطلق واليقين ، وهذا النوع من الرحلات لم يكن حديثا أو مقتصرا على بيئة أو شعب معين. وإنما وجد منذ القدم من جمهورية أفلاطون إلى ابن طفيل وابن شهيدوا والمعري وابن عربي .

3- دوافع الرحلة :

تتعدد الدوافع التى تحمس الإنسان للرحلات وتختلف من شخص لأخر ومن قوم لقوم ومن عهد لعهد إلا أنها في الأغلب لا تخرج عن أن تكون :

أ- دوافع دينية :

كأن يرتحل للحج إلى الأماكن المقدسة تلبية لنداء الرحمان وتوبة وتطهيرا للنفس من الذنوب ، وعهدا للسير على الصراط المستقيم أملا في المغفرة [(2)] فالرحلة الحجازية " الحجية " هي رحلة موسمية إلى الحج إلى بيت الله الحرام ، كان لها دور هام في الاتصال بين أهل المغرب وإخوانهم في البلاد الإسلامية بالمشرق الأمر الذي رسخه معه روابط اللغة والدين حتى بعد أن تبددت الوحدة السياسية [(3)]

---

(1) علي زيعور : مجلة الأفاق العربية " الأنا الأعلى في الذات العربية ، البطل في التصوف والإنتروبولوجية والفنون والأحلام " . السنة الخامسة .ديسمبر 1980 ص 27.

(2) فؤاد قنديل : سبق ذكره ص 19 .

(3) " محمد فهيم " حسين ، أدب الرحلات . عالم المعرفة . المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب – الكويت –العدد 138- 1989 ص 199.

وتربط هذه الرحلة ثلاثة مشاهد أساسية ، الأول مشهد الخروج حيث يكون الخارج ضمن ركب منظم يرأسه شخص عارف بالطريق يوصف بالتقوى والأمانة ثم يأتي بعد ذلك مشهد المسير ثم مشهد الوصول ، ولكل من هذه المشاهد طقوسها وأحداثها ، وتعتبر رحلة ابن جبير نموذجا لهذا النوع من الرحلات .

"وعلى العموم فإن هذه الرحلة تقص ما شاهده إبن جبير في طريقه إلى حجه وعودته منه وهي مكتوبة على طريقة مذكرات يومية [(1)]

كان الحجاج عند عودتهم إلى بلادهم يخبرون عن الطرق التي سلكوها والأحداث التي صادفوها ، وقد كان النابهون منهم يدونون مشاهداتهم ، ويعملون على أن ينفعوا المؤمنين بتجارتهم فيصفون رحلاتهم تسجيلا لفضلهم وهداية لغيرهم ، ولفتا لنظر أولى الأمر إلى ما يجب إصلاحه .كما أن أهل الخير والتقوى في شتى البلاد الإسلامية يرحبون بإخوانهم المسلمين ويعنون بإقامة الرباطات وحبس الأوقاف للإنفاق منها في سبيل راحتهم [(2)]

ومن قبيل ذلك تبشر بالدين فقد كان حافز نشر الدين الإسلامي السبب الأول –في أغلب الأحيان – في مباشرة الرحلة هذا الحافز الذي أملته حالة الحضارة الإسلامية التى كانت في أوج عطائها وازدهارها .

وما صاحبها من فتوحات وتوسعات امتدت من غرب الصين شرقا إلى البحر الأطلسي غربا " حيث أن رجال الرحلة الذين سافرو ا وجابوا في البلاد واجتازوا المسافات هم الذين مهدوا للتوسع الإسلامي [(3)]

ب- دوافع اقتصادية:

من أقدم الرحلات التجارية البحرية تلك القافلة من السفن التى أرسلتها الملكة المصرية " حتشبشوت" إلى بلاد "بنت " الصومال حاليا وكانت هذه الرحلة سلمية سجلت على جدران المعابد (أما أذا عدنا إلى العرب المسلمين فنجد أن نطاق التجارة عندهم إتسع إتساعا لم)

أما إدا عدنا إلى العرب المسلمين فنجد أن نطاق التجارة عندهم اتساعا لم يبلوغه شعب

---

(1) ابن جبير : رحلة إبن جبير ، مقدمة الرحلة بقلم عروة عمر .دار القصبة للنشر .الجزائر 2001 ص 3

(2) زكي محمود حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار الرائد العربي –بيروت ص 7

(3) فؤاد قنديل : سبق ذكره ص 300 .

أخر قبل كشف أمريكا ، فانتشرت قوافل التجار المسلمين في القسم الأعظم من العالم المعروف في ذلك العهد وخاضت سفنهم عباب البحر والمحيطات وازدهرت على أيديهم طرق التجارية بين بحار الصين وآسيا الوسطى وسواحل بحر البلطيق والأندلس وشواطئ المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وساحل إفريقيا الشرقي وجزر المحيط الهندي وصحارى السودان ، وكان التجار يحملون السلع بين الأسواق المختلفة في العالم "الممتد " المتمدن حينئذ ويقومون بالرحلات الطويلة في هذا السبيل . وحسبنا أن نشير إلى الكنوز الوافرة من النقود الإسلامية التى عثر عليها في روسيا وفلندة والسويد والنرويج بل في سويسرا وجزيرة إيسلندة [1]

إن كتب الرحلات وتقويم البلدان عن التجار المسلمين تشير إلى ترددهم على جنوب روسيا وإلى وصولهم أوروبا الوسطى . ويشهد ذلك كله بما كان للمسلمين من سيادة تجارية في تلك البقاع .

أما التجارة بين الشرق الأدنى والأمم المسيحية في البحر الأبيض المتوسط فقد كان معظمها في يد اليهود ولكن الرحالة والتجار المسلمين كانوا يزورون القسطنطينية والمدن التجارية في شبه جزيرة إيطاليا وكان للمنتوجات الشرقية والسجاد سوق رائجة في أوروبا [2]

كان بعض المسلمين يجمعون بين التجارة وطلب العلم من ذلك أصدر فقام المقدسي في السفينة إلى عدن صارحه بأنه يخشى عليه إذا دخل هذا الثغر فسمع أن رجلا ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار وأخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة –طلبت نفسه التكاثر وانصرف عن جمع العلوم إلى التجارة فدعا المقدسين أن يعصمه الله ، ولكنه لما دخل عدن وسمع عن ثراء التجار أكثر مما قال رفيقه في السفينة غره ذلك . وعقد العزم على السفر بتجارة إلى ساحل إفريقيا الشرقي واشترى مع شريك له ما يلزم من التجارة مع تلك الأقاليم [3]

(1) زكي محمود حسن : سبق ذكره ص 8 .

(2) المرجع نفسه ص 9.

(3) المرجع نفسه ص 10 .

جـ - دوافع تكليفية :

وهي رحلات قصد إنجاز مهمات رسمية وتتم عن طريق مثل الوفود والسفارات التى يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات أو لمناقشة شؤون الحرب والسلام أو تمهيدا لفتح أو لغزو (1) . ومن أهم هذه الرحلات رحلة شاتوبريان إلى إيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية.

كان بعض أمراء المسلمين يوقدون الرسل والسفراء إلى غيرهم من أمراء المسلمين فدعا ذلك أحيانا إلى القيام برحلات طريفة إلى أصقاع لا يألفها المسلمون .

إن الرحلات بأنواعها تحقق أهدافا معينة فالرحلة التجارية ذات قيمة اقتصادية في حين نجد الرحلة الحجية ذات قيمة دينية والرحلة العلمية ذات قيمة معرفية أما الرحلة التكليفية فذات قيمة دبلوماسية سياسية .أي أنها تخدم العلاقات بين الدول .

د- دوافع علمية : من أجل تحصيل العلم .والاستزادة منه في منطقة أخرى من العالم داع صيت أبنائها في مجالات العلوم كالفقه والطب والهندسة والعمارة وغيرها ونذكر كتب الحديث والسير أن من الفقهاء والعلماء من كان يقطع القفار ويعبر الأنهار طلبا لحديث نبوى سمعه أو لمجرد التحقق من كلمة فيه .

ومن قبيل ذلك أيضا رحلات البحوث العلمية والكشوف الجغرافية (2)

هـ- دوافع سياحية وثقافية :

تصدر عن رغبة في الطواف نفسه والسفر لذاته وجب التنقل وتغير الأجواء والمناظر وتجديد الدماء بالمشاهدة والمغادرة ومعرفة الصيد من الخلق الطبيعة والبشر واكتساب الخبرة بالمسالك والطبائع وقد تكون لتعرف المعالم الشهيرة كالآثار والمنارات والأبراج أو الكهوف والغرائب والعجائب (3)

و- دوافع صحية:

كالسفر للعلاج أو الاستشفاء أو إراحة النفس من ألوان العناء وتخليصها من الكدر كالارتحال إلى المناطق الريفية ونحوها وقد يكون هربا من وباء أو طاعون أو تلوث (4)

(1) فؤاد قنديل : سبق ذكره ص 29 .
(2) المرجع نفسه ص 20.
(3) المرجع نفسه ص 21
(4) المرجع نفسه ص 20

يتميز الأدب الرحلى بمجموعة من الخصائص :

- **الأسلوب :** يميل إلى الإطناب في السرد والأعراف في التمثيل والوصف .

- **اللغة:** يمكن أن تحتوى على ألفاظ عامية.

- **المضمون :** حكايات خرافية عموما على الرغم من وجود حكايات لها سند واقعي.

4- أهم الرحالة الغرب :

أصبح الشرق منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي حلما راود الكثير من الأوربيين من اطلاعهم على ترجمات قصص ألف ليلة وليلة والقصص والأشعار الخيالية عن الشرق والتي كتبها ونظمها عدد من كتابهم وشعرائهم وحجابهم وفناصلهم الذين زاروا الشرق وقنتوا به ، ومنذ ذلك الوقت أصبح الشرق مادة أدبية راجت سوقها ولاختلافها عن المألوف في البلدان الأوروبية فاندفع بعض الأدباء والشعراء الأوروبيين إلى زيارة بلدان المشرق مثل مصر وسوريا ولبنان والأماكن المقدسة في فلسطين وزيارة مدينة القدس بشكل خاص التي تحمل بعدا دينيا ودنوا مشاهداتهم وانطباعاتهم ويرى المرء تأثير تلك الرحلات على أدبهم وشعرهم . ومن أهم هؤلاء الرحالة نذكر :

1- **فراسوارينيه دي شاتوبريان : (1768-1848) :** أحد زعماء الحركة الروماتيكية في الأدب الفرنسي ، وهو من الكتاب المؤثرين على الفكر الغربي من ناحية الاستشراق ، قام شاتوبريان برحلة إلى الشرق خلال عامي (1806-1807) وأبحر من إسبانيا إلى اليونان ، ومنها سافر إلى اليونان ومنها سافر إلى تركيا من أجل الحصول على ذن للسفر إلى فلسطين لسببين أولهما أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة وثانيها البحث عن صور الشهداء المسيحيين الأوائل كما ذكر في مقدمة كتاب رحلته قائلا :" إنما جئت الشرق لأفتش عن صور الشهداء الذي يقصدهم شاتوبريان هم أبطال روايته الشهيرة التي سماها " الشهداء " وقص في تلك الرواية حياة النصارى الذين كابدوا في أول عهدهم الاضطهاد والعذاب في سبيل دينهم من قبل الرومان ، أما انطباعاته خاصة والشرق عامة فقد دونها في كتاب تسوق به الفرنسيين إلى زيارة القدس مهبط الأنبياء وكان تحت عنوان (رحلة الطريق من باريس إلى القدس) .

ونشرة باريس عام 1811 ، وقد اتسمت كتابات شاتوبريان بمعاداته للعرب وللمسلمين وحتى في مقدمة الطبعة الثانية لرحلته التي صدرت عام 1826 فرنسا على احتلال الشرق.

2- **غوستاف فلوبير : (1821-1880) :**خلال الأعوام 1849-1852 قام الأديب والروائي الفغرنسي غونستاف فلوبير برحلة إلى الشرق وزار مصر وفلسطين وسوريا وقبرص وذكر بأن الدافع إلى القيام برحلته هو جمع مواد ملحمة القرطاجية (سلامبو) نشيد المدينة والعبقرية الفينيقية ، وصل فلوبير إلى القدس بتاريخ 8 آب 1850 قادما من بيروت ، ودهش بجمالها وطبيعتها ، وعبر عن ذلك في الرسالة التي بعثها إلى أمه قائلا : " تبدو لي البلاد رائعة ، على عكس ما تعرف به " ، وأثناء تجوال فلوبير في المدينة تخيل السيد المسيح عليه السلام وهو يصعد " جبل الزيتون " في القدس ، ثم ذكر السكان الذين صادفهم أثناء تجواله مثل الجندي العثماني بمسبحته الإسلامية والأرمن ويهودي بولونيا ثم استوقفه مسجد عمرو رضي الله عنه ووصفه بالجميل وقد دون انطباعاته وذكرياته عن رحلته المشرقية في كتاب جاء تحت عنوان " رحلة إلى مصر " وتجد أيضا آثار رحلته ضمن أعماله وقد تعرضت نصوص رحلته الأدبية كمجموعة القصصية (هيروديا) أو في روايته تأملات سانت أنطوان و لسلامبو إلى النقد .

3- **نيقولاي غوغول (1809-1852) :** من الأدباء الأجانب الذين زاروا الشرق الأدبي القاص والروائي والكاتب المسرحي الروسي يقول صاحب قصة (المعطف) ورواية (الأرواح الميتة) فبعد زيارته لإيطاليا أبحر غوغول في الأول من شبط سنة 1948 من ميناء نابولي ، على متن الباخرة المتوجهة إلى بيروت ، ومرت بمحاداة الشواطيء السورية حتى وصلت إلى ميناء بيروت ، فاستقبله صديق دراسته " قسطنطين بازيلي " الذي كان يشغل منصب القنصل الروسي العام في سورية ، وقد استضافه بازيلي في منزله في بيروت بضعة أيام ، وبعدها اصطحب غوغول صديقه بازيلي لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين وأداء فريضة الحج ، ليحقق غوغول حلمه بزيارة القدس في فترة أزمته الروحية والفكرية ، وتجول غوغول في أحياء القدس وأسواقها وزار المعالم الدينية والتاريخية ، ولكنه لم يحصل على ما كان يحلم به من طمأنينة روحية ، وهذا ما دفعه إلى مغادرتها بعد بضعة أيام من وصوله إليها

وذكر غوغول في نصوص رحلته التي دونها ونشرت ضمن مجموعة أعماله الكاملة الصادرة في موسكو عام 1952 عن الفائدة التي جناها من رحلاته وأسفاره التي قام بها إلى ألمانيا وسويسرا وباريس وروما وروسيا وبلاد الشرق ، ويصف نفسه على أنه أصبح مرهف الإحساس في كل شيء يجيد الاستمتاع بالأشياء الصغيرة من تدرج الألوان في الطبيعة ، وأبرزت الكلمة الشعرية الحية مراميه البعيدة .

I. رحلة لامارتين إلى الغرب :

- اسبانيا، ايطاليا:

تنتمي الأندلس وإيطاليا إلى التشكيلة الطبيعية التي تنتمي إليها كل الأوطان التي زارها لامارتين في البلاد العربية ، وقد تجلى اهتمامه بالجبال و البحر، منذ البداية، وتمكن من ترسيخ دلك نصوصه الشعرية الرائعة، التي عبر فيها عن حنينية وذوبان مع العناصر الطبيعية من جهة ومع بعض الشخصيات التي تعرف عليها هناك .

في 1816 التقى لامارتين بالجميلة (جولي شارل) وقد حدث ذلك على ضفاف بحيرة بورجية ، ولكن هذا اللقاء الذي انتهى بسرعة لم يكتب له أن يعاد فقد ماتت المسكينة سنة 1817 . وكتب الشاعر قصيدته (البحيرة) ليخلد الحادثة في أروع النصوص الرومنسية وقد تزوج لامارتين (ماريانا اليزا بارش) وهي شابة من انجلترا لينتقل معها إلى إيطاليا بوصفه كاتبا في سفارة فرنسا كان ذلك سنة 1820 ليستقيل من منصبه سنة 1830 .

كان لامارتين كثير الاهتمام بالمناظر الطبيعية التي سحرته وأبهرته ، ومكنته من الاسترخاء ونسيان الهموم الفردية والسياسية .

لقد انخرط لامارتين في الحياة السياسية وكان يسعى إلى القيام بالمهام المنوطة به على أكمل وجه، ومع أنه أمضى فترة الأولى في إيطاليا كان خلالها قريبا جدا من الحياة العسكرية التي لم يستطع تحملها ، عاد إلى bourgogne ليؤلف نصوصا شعرية أخرى ويبدع في الأحاديث الروحية المفعمة بالتعاويذ النفسية .

في إيطاليا تعرف إلى فتاة وسمها بنصه GAZiella .

اسبانيا بلد الجنون والسحر والروعة والطبيعة المجنونة ، كم كان نسيم البحر الهادئ رهنينا وقد مكن (جوليا) ابنة لامارتين من التمتع بالشطآن ومناظرها التي تذكر بشطآن فرنسا ، ومرسيليا تحديدا.

لم يسترح لامارتين كثيرا من عناء أسفاره ورغم أنها كانت تختلف من حيث أهدافها وأسبابها إلا أنها كانت تفسح أمامه المجال ليبعث شعلة حياتية جديدة في نفسه المتهاوية .

كانت الطبيعة لدى لامارتين واحدة ، فالأرض حين ننظر إليها من اليابسة تكتسي جمالا لا يختلف عن جمال الطبيعة حين نعيش بداخلها ، ومع ذلك فهي جميلة وفيها نستطيع الاستراحة ، إنها تحنو علينا وتدغدغنا وتهدهد على أكتافها كي تشعرنا بأنها تشاركنا همومنا و أوصابنا .

إسبانيا أو إيطاليا محطات من بعض المحطات التي مر عليها لامارتين خلال الرحلة التي قادته إلى الشرق أو خلال تكليفه ببعض المهام الدبلوماسية ، والواقع أن موقفه منهما يختلف من وضعية لأخرى ، حين كان ممثلا سياسيا كان محبا للطبيعة لكنه لم يفسح العنان أمام قلمه كي يسرد كل ما يمر أمام ناظريه أما خلال مروره بالبحر قربهما فان نظره تحول فغدا مفعما بالرومانسية ، يعبق بالنشيد الروحي .

لم يستطيع أي دارس أن يتتبع موقع ايطاليا واسبانيا في شعر لامارتين من خلال نص أو نصين فهو موزع على عدد هائل من القصائد التي نستطيع تطبيق النظرية
القائلة بالمعادل الموضوعي عليها كي نتمكن من تجميع شتات الذاكرة وهشيم النظر .

لم يذهب لامارتين إلى إيطاليا بغرض السياسة فقط إنما فرّ من جحيم السياسة في فرنسا والصراعات التي ميزت الحياة هناك خصوصا بعد دخوله معترك الانتخابات وخسارته أمام غريمه.

في المنفى أوفى الحياة الجديدة في إيطاليا خاصة عاش مع الآلام أيضا ابنه الذي توفي ولم يزل صغيرا وابنته صارت حبيسة مرضها المزمن، داء السل الذي كان سببا في رحلته إلى الشرق فيما بعد.

إيطاليا لم تعد بعيدة عن فرنسا ولم تتميز عنها من ناحية السياسة والطبيعة والعادات والتقاليد والأنماط والسلوكات وقد هيأت له الجو للدخول في جو الحل و الترحال.

II. 1/ رحلة لامارتين إلى الشرق:

يتشكّل الكتاب من مذكّرات وانطباعات وأفكار ومناظر مرّت عليه خلال الرحلة ، إنها سجلاّت مسافر ، تمتد الرحلة على مساحة زمانية مدَتها أربعة عشر شهرا بدأت من جويلية ألف وثمان مائة واثنان ثلاثون (1832)، وانتهت في سبتمبر ألف وثمانمائة مائة وثلاثة وثلاثون(1833).

انطلق ألفونس دو لامارتين من مرسيليا سنة ألف وثمانمائة مائة واثنان وثلاثون (1832) للقيام برحلة إلى الشرق الأوسط بعد أن جهَز سفينة تقّل تسعة عشر شخصا من بينهم زوجته وابنته جوليا والتي توفيت في بيروت ،الشاعر والرجل السياسي الفرنسي زار اليونان ، مالطا ، فلسطين ، لبنان ، سوريا ، تركيا ، صربيا ، وبلاد البلقان . استقبل من العظماء وبفضول من الكل أبهر لامرتين في هذه الجريدة بقامته ومجازفته التي تتحدّث عن المنطقة اليوم والتي لا تزال في حالة توترات عويصة لأعوام ، وتعطينا معلومات ثمينة حول اليونان ، البلقان وكذلك لبنان.

رسم لنا لامارتين مخطط رحلته من ساعة انطلاقة حتى وصوله وجسّد لنا الانطباعات التي راودته عند وصوله وفي هذا الشأن يقول : " في السّاعة الخامسة كنت واقفا على الجسر، وجهّز القبطان قاربا في البحر ركبت معه وانطلقنا إلى مضيق البوسفور متخطين جدران القسطنطينية التي يمسحها البحر، وبعد نصف ساعة من الإبحار تخطينا عددا كبيرا من البواخر الرّاسية في الميناء ، لامسنا جدران السرايا التي تربط أسوار المدينة وتكمّلها ثم تشكل في النهاية التي تتضمن رأسي إسطنبول ، يفصل بين بحر مرمره وقناة البوسفور وقرن الذهب ، أو الفسحة الواسعة داخل القسطنطينية هناك أبدع الإله والإنسان في الطبيعة والهواء والمكان وشكل الحقل ووجهة النظر الأروع التي يمكن لنظر الإنسان أن يراها على الأرض ، أطلقت صرخة لا إرادية ونسيت خليج بابل وكل سحره مقارنة بهذا الجمال وهذه الروعة المتلاحمين إنها بدعة الخلق." (1)

(1) Lamartine . voyage en orient p 01

نعود بعد هذه المقدمة إلى الحديث عن رحلة لامارتين إلى الشرق لكن قبل ذلك نودّ أن نشير إلى أسباب هذه الرحلة فهي تكن مباشرة بل كانت نتيجة هوس بالشرق غذّاه أقوال الناس ونصائحهم له بزيارة الشرق فقد يكون في ذلك شفاء لابنته وكذا البحث عن الجمال ومحاولة تغذية النصوص بروافد جديدة مستمدّة من جمال الطبيعة ، وفي هذا الصدد يقول: " أوّد أن أذهب إلى الشرق، لأبحث عن تأثيرات شخصية في ذلك الملعب الرحب حيث وقعت حوادث العالم القديم ، ومثّلت السياسات والأديان ، أودّ أن أقرأ قبل الموت أجمل صفحة في سفر الخليقة ، فإذا اهتدى الشعر في ذلك الملعب إلى صورة جديدة فلن أتردّد في حملها في زوايا مخيّلتي ، رجاء أن أتوصل بذلك إلى إعارة الآداب ألوانا جديدة " .[1]

إن القراءات السابقة لشاطوبريان خاصة قد شوّقت الفرنسيين إلى زيارة مهبط الأنبياء ، فلامارتين كان دوما يمني نفسه بزيادة الشرق ولو كان ذلك على حساب ثروته حتى وإن صار فقيرا فقد كتب إلى صديقه دوميك سنة 1818 يقول فيها " لو استطعت أن أجمع مئة فرنك لذهبت إلى اليونان ثم إلى القدس لا أحمل لا كيسا ولا آكل خبزا " .[2]

كذلك كتب إلى صديق آخر له يقول :" أوّد أن أزور القسطنطينية قبل كل شيء لأتفرج على شواطيء البوسفور ، ثم أتنقل إلى سورية ، فأزور فلسطين ولبنان وتدمر وبعلبك ودمشق إذا سمح العرب ، فإلى مصر حيث أتفرّج على النيل والأهرام "[3]

خير إنسان عند لامارتين هو الإنسان الذي يرتحل فالرحلة تزيد من معارفه وهذا ما يساعده على التغيير في تفكيره وطريقة حياته عكس الإنسان الذي يبقى رهينة مجتمعه يأخذ عادات وتقاليد مجتمعه على أنها مسلّمات لا ينبغي له أن يحيد عنها ويضيف أنه لا عيب في أنّ لكل مجتمع دين ، فلسفة ، تفكير خاص به ، بل نحن من يجب أن يتقبل آراء الآخرين فهي تقوّي من ثقافة الفرد - ولعّل هذا ما جعل لامارتين يمنّي نفسه بها – وقد برّر موقفه هذا بقوله :" ما من رجل تام الصفات إلا الذي يسافر كثيرا وبدّل عشرين مرة شكل فكره ونمط حياته ، فالعادات الضيقة الرتيبة التي يتعودها الإنسان في حياته النظامية وفي رتابة وطنه قوالب تصغرّ كل شيء : الفكر والفلسفة والدين والطبع كل شيء أكبر ، كل شيء

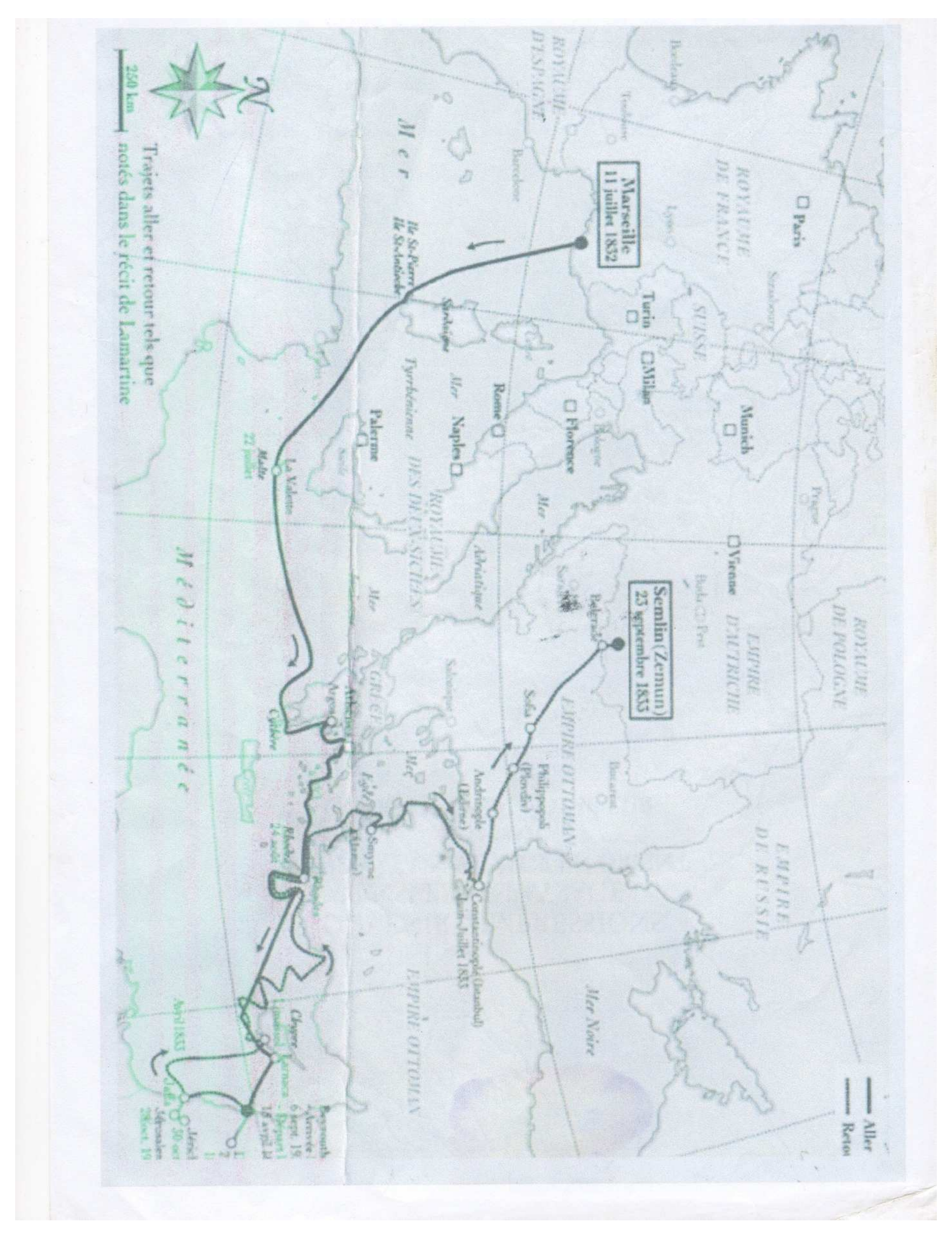
(1) IBid p 04
(2) IBid p 18
(3) IBId p 19

أعدل ، كل شيء أصدق عند من رأى الطبيعة والمجتمع من وجهات نظر عديدة . يوجد وجهة نظر لأجل الكون المادي والثقافي . السفر من أجل البحث عن الحكمة كانت كلمة كبيرة عند الأقدمين ، ونحن لم نكن ندرك معناها : ما كانوا يسافرون للبحث فقط عن عقائد غير معروفة وعن دروس في الفلسفة ولكن ليروا كل شيء ويقدروا كل شيء . فيما يتعلّق بي تذهلني باستمرار الطريقة الضيقة الهزيلة التي بها ننظر إلى الأشياء والمؤسّسات والشعوب . إذا عقلي كبر ، وإذا نظرتي اتسعت وإذا تعلمت التسامح في كل شيء ، وفهمت كل شيء ، فإنّي مدين بذلك فقط إلى كوني بدّلت كثيرا المشهد ووجهة النظر . دراسة القرون في التاريخ والناس في الأسفار والله في الطبيعة تلك هي المدرسة الكبيرة ندرس كل شيء في كتبنا الحقيرة ونقارن كل شيء بعاداتنا المحلية الصغيرة : ومن ذا الذي صنع عاداتنا وكتبنا ؟ أناس صغار مثلنا . فلنفتح سفر الأسفار ولنعش ولنر و لنسافر : الكون كتاب وكل خطوة نخطوها تقلّب لنا صفحة فماذا يعرف من لم يقرأ سوى صفحة واحدة ؟!..." [1].

---

(1)IBId p 15

2/ مخطط رحلة لامارتين إلى الشرق:



(1) *http://www.google.com/images?hl=fr&q=%D9%85%D8%AE*

III. موقع الشرق في كتابات لامارتين:

يتجلى الموقع من خلال مجموعة من العناصر:

1- الطبيعة :

يتمثّل جمال الغرب عادة في العناصر الطبيعية التي تزدهي زمن الشتاء أمّا جمال الشرق ففيه من الغرب كل شيء وله تفرّد تصنعه حبّات الرمل ووهيجها وقت شروق الشمس أو حين يصعد لهيب السّراب في ذلك الزمن يمكن للخيال أن يرى مالا تراه العين . إنّ الصّور المنتقاة والواقع الذي خلقه الواحد الأحد كلّها عناصر تتآزر لتنتج جمالا أخّادا سيكون له الأثر في إعطاء الشاعر الدّفقة اللاّزمة للبوح بروعة المناظر الخلابة وعظمة البحر والصحراء وجمال الثلوج فيقول :" صعدنا نتسلّق الجبال فأبصرنا وراءنا البحر يحتجب رويدا رويدا عن الأنظار ، وقد انبثق الفجر وأطلت شعفات القمم تذوب على رؤوسها أكوام الثلج ، فتراءت لنا الصحراء الفسيحة تلمع تحت بخارها الناري كقطعة من حديد أعارتها النيران لونها الأحمر، أو كمحيط عظيم لا شواطئ له ، تسبح الشّمس والجبال والغيوم " (1) .

بعد ذلك يشيد بكرم الفلاح العربي وبحسن ضيافته فيقول : " بقينا ثلاثة أيام نسير في طريق وعرة ، فتجتاز المجاري المنحدرة في أعالي الجبال ونمرّ على خيام العرب المنتشرة هنا وهناك ، كأنها صخور بيضاء تلمع خلال الأغصان وعندما يهبط الليل ، نحل ضيوفا مكرمين على قبائل الفلاحين ، فالشرق يكرم الضيف أيا كان " (2)

نشير إلى أنّ لامرتين قد ارتحل مرتين إلى الشرق وفي ذلك دلالة واضحة على شدّة تعلّقه وقوّة تأثير هذا المكان فيه ويختلف في ذلك عن الشعراء والأدباء الذين كانت نظرتهم متعالية منطلقة من عقدة المركزية التي عبثت بعقول الأوروبيين خلال فترة متناهية من التاريخ الأوروبي ، لم ينظر لامرتين إلى الشرق الذي زاره خلال عهد عبد الحميد الثاني نظرة

---

(1) IBid p 105
(2) IBid p 120

استعمارية لكنه انطلق من المخيال وما أنتجه وقع الطبيعة التي ترشح بالخيال والتاريخ ، وقد كانت رحلته الثانية إلى سورية وصف فيها طريق رحلته وصفا دقيقا عبّر عن جمالها الخلاّب وأشاد بسحرها العجيب وتميز مناظرها الطبيعية وذلك في قوله :" في الساعة السادسة صباحا امتطينا الخيل وشرعنا في رحلتنا (من بعلبك إلى دمشق) دون توقف فيما بين جبال جرداء شاهقة المنحدر لا يفصلهما عن بعضها سوى شعاب ضيّقة حيث تجري سيول من ذوبان الثلج ، لا شجر ولا نميص أشكال تلك الجبال المفتتة غريبة تمثل أثارا بشرية ، منها أثر عال ضخم شاقولي المرتقى من جميع الجهات مثل هرم . قد يبلغ محيطه فرسخا ولا يستطيع أحد أن يكشف كيف تمكن الناس من تسلقه . فما من أثر ظاهر لدرب أو درجات مع أن أيادي بشرية حفرت مغائر من جميع القياسات في جميع منحدراته ...

تركنا هذا الجبل إلى شمالنا وما لبث أن صار خلفنا وهبطنا بسرعة من خلال منخفضات عسير سلوكها إلى واد أعرض وأكثر انفتاحا يجري فيه نهر. وبدأت تظهر لأعيننا على جانبيه من خلال شقوق الصخور التي تحف بالنهر أشجار الصفصاف والجوز وأشجار مختلفة كثيرة أخرى ،أغصانها متشابكة بصورة غريبة ، و أوراقها سوداء ، سرنا وتلك الضفاف ساعات مفتونين ونحن نتحدث دون أن نلاحظ دلك النهر يرافقنا وهو يخر ويزبد تحت أرجل خيلنا . الجبال العالية التي تشكلّ الشعب حيث يسيل النّهر تبتعد وتتكرّر فتتحوّل إلى تلال عريضة مشجرة تلقي عليها الشمس الغاربة أشعتها إنّها أوّل منفذ إلى ما بين النهرين : صرنا نرى أودية فسيحة تتفتح شيئا فشيئا على سهل الصحراء الكبير ما بين دمشق وبغداد. الوادي حيث كنا أخد يتسع الماء يجري فيه ببطء ، وبدأنا نلمح على يمين النهر وشماله بقايا زرع وتسمع أصوات قطعان بعيدة ، بساتين من أشجار المشمش الكبيرة وأشجار الجوز تحف بالطريق . وما عتمنا أن فوجئنا برؤية سياجات .كما في أوروبا ، تفصل بين البساتين والحدائق المزروعة بقولا وأشجارا مثمرة مزهرة حواجز أو أبواب خشبية تنفتح هنا وهناك على تلك الحدائق الجميلة . الطريق عريضة سوية معتنى بها جيدا كالطرق التي حول إحدى مدن فرنسا ". (1)

(1) IBid p 199.

الشيء نفسه بالنسبة لدمشق هي الأخرى أثارت إعجاب لامارتين فكان يصف كل مكان تلمحه عينيه وتطؤه قدماه ، أحب صحاريها ، بيوتها، أنهارها ، بساتينها سهولها ، غاباتها ، جبالها ، وحتى أحجارها وشعابها ، كل شيء بالنسبة له بسيط لكنه جميل فتان مثير للإعجاب ويتضح ذلك في قوله : " سرنا في الساعة التاسعة صباحا محادين جبل تغطيه بيوتا ريفية وبساتين سكان دمشق . جسر جميل ممتد فوق سيل عند سفح الجبل ، وشاهدنا أرتالا عديدة من الجمال محمّلة أحجارا من أجل أبنية جديدة ، كل شيء يدلّ على اقترابنا من عاصمة كبيرة : بعد ساعة من الزمن رأينا على قمة هضبة جامعا صغيرا منعزلا لقد كان منزلا لناسك محمدي، وإلى جانب الجامع عين ماء تجري ،وقد ربطت طاسات من النحاس بسلاسل إلى جدار العين كي يتاح للمسافر أن يرتوي ، فتوقفنا برهة في هذا المكان في ظل شجرة جميز وبدا الطريق مكتظا بالمسافرين والفلاحين والجنود العرب ثم امتطينا خيولنا وما إن سرنا صعدا بضعة مئات من الخطوات حتى سلكنا شعب عميقا منحصرا بين جبل نضيد ينهض شاقوليا فوق رؤوسنا إلى الشمال وحافات صخور إلى اليمين يبلغ ارتفاعها ثلاثين إلى أربعين قدما " (1) .

تعتمد الحضارة في الشرق على الشكل أكثر من الجوهر وتعتمد الزركشة أكثر من الفكرة ، وقد انعكس هذا المظهر من ناحية العمران، دمشق بما تحمله من قصور وعمران تاه لامارتين في هذه القصور التي تفيض بالنقوش وتزدهي بروائع الفن الزخرفي والتي صيغت بأيدي صنّاع مهرة ، وقد زينت بالأشجار والأزهار المتنوعة ونلمس هذا في قوله :" كان الانحدار سريعا والأحجار المتدحرجة تنزلق تحت حوافر خيلنا كان عرب الزبداني يسيرون في الطليعة وأنا في مقدّمة القافلة على بعد بضع خطوات منهم ،وفجأة وقفوا وصرخوا صراخ الفرح وهم يدلوني على ثقب في حافة الطريق ، فتقدّمت وحدّقت بنظري من خلال فجوة في الصخرة إلى أروع واغرب أفق لم يدهش مثله نظر إنسان من قبل :

---

(1) IBid pp 214-220

إنها دمشق وصحراؤها التي تحيط بها أسوار الرخام الأصفر والأسود تحضنها أبراج مربعة لا تحصى على مسافات متقاربة ، في أعاليها شرفات منحوتة ، وتسيطر على المدينة غابة من المآذن المختلفة الأشكال ، وتخترقها فروع نهرها السبعة والسواقي المتفرّعة عنه التي لا تعد ، لقد كانت ممتدة مدى البصر في متاهة بساتين مزهرة تلقي بسواعدها هنا وهناك في السهل الواسع ، الظل في كل مكان ، وتحف بالمدينة من كل جانب ضمن دائرة من عشرة فراسخ (أي 40 كم) غابة من أشجار المشمش و الجميز أشجارها من جميع الأشكال .وخضرتها التي هي من كل الألوان تبدو كأنها تختفي من وقت لأخر تحت قبب أشجارها ثم تظهرّ مرّة أخرى على بعد كبحيرات عريضة من المنازل والضواحي والقرى، متاهة بساتينها وحدائق وقصور و أسواق يحار البصر فيها فلا يترك فتنة إلا ليجد فتنة أخرى. لقد توقفنا عن المسير ، الجميع تراصوا عند فجوة الصخرة الضيقة المنقوبة مثل نافذة فكنا مرة نشاهد ونحن صامتون ومرة أخرى كانت هتافاتنا تتعالى المشهد السّاحر الذي كان يمتد كلّه هكذا فجأة تحت أعيننا في نهاية درب خلال صخور عديدة وأماكن منعزلة قاحلة عند بداية صحراء أخرى لا يحدها سوى بغداد والبصرة ينبغي لاجتيازها أربعون يوما ، وأخيرا استأنفنا السّير، الحاجز الصخري الذي كان يحجب عن أعيننا السهل والمدينة أخد ينخفض شيئا فشيئا حتى أتاح لنا أن نتمتع تماما بالأفق كلّه ، وما كنا إلا على بعد خمسمائة خطوة فقط من جدران الضاحية ، وكانت تحيط بتلك الجدران أكشاك فاتنة ومنازل ريفية أشكالها وهندستها من أعراقها شرقية تلمع مثل زثار ذهبية حول دمشق ،الأبراج المربعة التي تدعمها وتعلوا الخط موشاة بزخارف عربية تختلقها أقواس قوطية ذات عمد صغيرة رفيعة مثل قصب مجدول تضخمها شرفات على شكل عمامات ، رخام أصفر أو أسود وحجارة تكسوا السور بتعاقب وتناسق لطيف . أعالي السرو والأشجار الكبيرة الأخرى التي ترتفع في البساتين وفي داخل المدينة تسمو فوق السور والأبراج وتكللها بخضرة قاتمة وقبب الجوامع والقصور التي لا تحصى في مدينة يقطنها أربعمائة ألف من السكان كانت تعكس أشعة الشمس الغاربة وكانت مياه الأنهر السبعة الزرقاء اللامعة تتلألأ وتختفي الواحدة تلوى الأخرى من الشوارع

والبساتين والأفق خلف المدينة كان مثل البحر لا ساحل له فيختلط بالجوانب القرمزية لسماء نارية مازال يلهبها انعكاس رمال الصحراء الكبيرة إلى اليمين تلال جبال لبنان الشرقية العالية العريضة التي تبتعد مثل أمواج ظلال ضخمة بعضها أثر بعض تتقدّم مثل أنف جبل في السهل حينا وحينا تنفتح مثل خلجان عميقة حيث يغرق السهل وغاباته وقراه الكبيرة ،التي يبلغ عدد سكانها أحيانا ثلاثين ألفا . بحيرتان كبيرتان وفروع النهر كانت تظهر في ظلمة صبغة خضرة عامة كأن دمشق غارقة فيها وإلى يسارها سهل أكثر انفتاحا وعلى بعد نحو اثني عشر أو خمسة عشر فرسخا كانت قمم جبال مكللة تلمع في زرقة السماء مثل غيوم الأوقيانوس ، تحيط بالمدينة تماما غابة حدائق من أشجار مثمرة حيث الوالي تتشابك كما في نابولي وتمتد كشرائط زخرفة فيما بين أشجار التين والمشمش و الإجاص والكرز،الأرض تحت هذه الأشجار خصبة مروية دائما ومفروشة بالشعير والحنطة والذرة وجميع الخضار التي تنتجها هذه التربة.

بيوت صغيرة بيضاء تتخلل هنا وهناك خضرة هذه الغابات وتتخذ مسكنا للبستاني أو مكانا تتنزه فيه أسرة المالك ، وفي هذه البساتين خيول وخراف وجمال وحمام وكل ما يشيع حركة في مشاهد الطبيعة ، مساحة كل منها " أرى بيت أو أرى بيتان بصورة عامة يفصل بينها جدران من طين مجفف في الشمس أو من سياج حي جميل وبين هذه البساتين طرق عديدة ظليلة وإلى جانبه ساقية ماء جار تؤدي إلى ضاحية بعد أخرى حتى تصل إلى بعض أبواب المدينة . إنها تشكل دائرة قطرها عشرون إلى ثلاثين فرسخا حول دمشق "(1) .

غادر لامرتين دمشق حاملا معه ذكريات جميلة لن تمّحي أبدا من ذاكرته ، والحقيقة أن الشاعر لم يستطع إخفاء أسفه عند مغادرة البلدة فقد غز عليه تزكها ويبدو ذلك في التفاته وإمعانه النظر فيها حيث قال : " غادرنا دمشق في الساعة الثامنة صباحا فاجتزنا المدينة والأسواق المزدحمة بالناس وسمعنا تدمّرات وبعض العبارات المهينة لاعتبار الناس أننا جئنا لدعم إبراهيم باشا . خرجنا من المدينة من باب غير الباب الذي دخلنا منه وسرنا في محاذاة بساتين بديعة في طريق على حافة سيل تظلله أشجار عالية وتسلقنا الجبل الذي منه أطللنا على منظر دمشق الجميل وتوقفنا لتأملنا مرة أخرى ونحمل معنا في أدهاننا صورتها الخالدة ،

(1) IBid p 190

أفهم أن التقاليد العربية تجعل من دمشق مكان الفردوس الضائع ما من مكان آخر في الدنيا بذكر بعدن أفضل تذكير ، السهل الواسع الخصب فروع النهر الأزرق السبعة التي ترويه ، الإطار الجبلي المهيب ، البحيرات المدهشة التي تعكس السماء على الأرض ، المركز الجغرافي بين بحرين كمال المناخ كل شيء يدل تعكس السماء على الأرض ، المركز الجغرافي بين بحرين كمال المناخ كل شيء يدل على أن دمشق كانت على الأقل إحدى أوائل المدن التي سكنها أبناء البشر ومكان قبلة طبيعية للإنسانية التائهة في الأزمنة الأولى ، إنها من تلك المدن التي كتبها الله بأصبعه على الأرض ، عاصمة مقدرة مثل القسطنطينية إنهما مدينتان الوحيدتان اللتان ما وضعتا على خارطة الإمبراطورية بصورة كيفية بل دل عليها بصورة لا تقاوم شكل الأمكنة ،مادام في الأرض إمبراطوريات ستكون دمشق مدينة كبيرة واسطنبول عاصمة العالم

عند مخرج الصحراء وعند انفتاح سهول سورية و أودية الجليل وشاطئ بحار سوريا كان لابد من مكان للراحة ساحر لقوافل الهند انه دمشق.

ألقيت نظرة أخيرة إلى دمشق مع تمنيات قلبية للسيد بودان والأشخاص الطيبين الدين حملونا فيها وسحروا أيام إقامتنا ،وما إن خطت خيلنا بضع خطوات حتى توارت عن أعيننا رؤية قمم أشجارها ومآذنها إلى الأبد " [1].

جاء لامارتين إلى الشرق ليبحث عن دلك الجمال المحتجب وراء أكماته ، وبين آثارها الخالدة ، فتراءت له بقايا الأديان والتقاليد والفن والجمال الأخّاذ فاتسع خياله واعتنت نفسه بهذه الآثار التي حمل أسرارها إلى بلاده .

(1) IBid p 190

2/ أوطـــــــان :

حين وصل لامارتين إلى بيروت ، استأجر بيتا محاطا بالبساتين عند أبواب المدينة ، وبعد أن استراح من عناء السّفر خمسة عشر يوما ، ترك ابنته جوليا في بيروت ، ومضى في قافلة من الجياد تحمل حاشية من اللبنانيين والمصريين ليزور بلاد الجليل والسامرة وصيدا ... ولدى عودته إلى داره كتب إلى صديقه يقول :" لقد طفت مدّة خمسة وأربعين يوما ، وكان الطاعون متفشيا في القدس لكن هذا لم يمنع من دخولي إليها وعدت سليما معافى مع حاشيتي الكبيرة ، بفضل الاحتياطات التي اتّخذتها على يد إبراهيم باشا " (1). وكانت جيوش إبراهيم باشا آنذاك تحتل سورية لبنان .

ثم يحدثه عن منزله الذي يبعد مسافة عشر دقائق عن بيروت فيقول: " ما من لذّة تعدل اللذّة التي استمتعنا بها ساعة استفقنا من الرّقاد عقب اللّيلة الأولى التي صرفناها في الدّار على مسافة عشر دقائق من المدينة ، ويوصل إليها من طريق مظللة بأشجار الصّبّار ، التي تتدلّى ثمارها الشائكة حتى لتكاد تلامس رؤوس العابرين ويجتاز المار ببعض الجسور القديمة و الأبراج الكبيرة المربّعة التي شيدها أمير الدروز فخر الدين المعنى ..." (2).

يصف لنا لامرتين مآذن الجوامع والقلاع في بيروت فيقول : " عندما انحدرت إلى الجهة المعاكسة للبحر شاهدت مآذن الجوامع العالية تنصب في أديم الصباح الأزرق المتوج ، والقلاع المغربية التي تخيّم على المدينة وتعشش في جدرانها المهجورة شجيرات التبن والقرنفل وغيرها " (3).

بعد ذلك يتحدّث الشاعر عن استيلاء الأتراك على الهيكل المقدّس ومحافظتهم عليه ويتضح هدا من قوله << لقد استولى الأتراك على الهيكل المقدّس استيلاء مكنتهم منه الحرب إلا أنهم لم يهدموه ولم يشوهوا جهة من جهاته بل يحرسونه بخشوع واحترام وتقوي تقتضيها العبادة المسيحية ، ولقد رأيت حرّاس هذا الهيكل فلم أقع في وجوههم وحركاتهم وأحاديث على شيء من ذلك الاحتقار الذي يتهم به البعض ، ولولا هؤلاء الأتراك لكان القبر الذي يتنازعه

---

(1) Ibid. p 201
(2) Ibid. p 206
(3) IBid p 207

الأرثودكس والكاثوليك من جهة ، وسائر الطوائف المسيحية من جهة أخرى ، قد استحال مئة مرّة إلى موضوع خصام وجدال بين تلك الطوائف المتنازعة فأي ذنب اقترفه الأتراك إذن ؟ الحقيقة أنّه حيثما رأى المسلم فكرة الله في روح إخوته احترمها وانحنى أمامها ألا فليتساءل المسيحيون بصدق ماذا كانوا يفعلون لو سلمتهم مقدرات الحرب مكة والكعبة ؟ أكان باستطاعة الأتراك أن يقبلوا من جميع جهات أوروبا و آسيا ليكرموا بسلام الآثار المحفوظة للإسلام؟ [(1)].

في مقابل تمتعه بحياة الرحل والإقامة في الشام شعر الشاعر بسوداوية عظيمة بعد وفاة ابنته التي تبلغ من العمر عشر سنوات، وكانت قد أصيبت بداء في الصدر في فرنسا فظن أن هواء لبنان العليل قد يشفيها من علّتها لكن أماله ذهبت أدراج الرياح، ولفظت أنفاسها الأخيرة بين ذراع والديها، من غير أن تقاسي كثيرا من الآلام فحنّط جثتها ودفنها دفنا مؤقتا عند أصل شجرة خرنوب مزروعة قرب داره وكان عليه أن ينتظر قدوم الربيع ليتمكّن من العودة إلى فرنسا فانتظر ثلاثة أشهر على أحّر من الجمر ، وفي إحدى الأيام شعر بالحزن يملك عليه جميع مشاعره فلم يجد من يؤنس وحشته ويواسيه سوى صديقه " بيرو " فبعث إليه قائلا :" أكتب إليك لأطلعك على النكبة التي نزلت بي فهدّمت مستقبلي وجهّمت في عيني جميع ألوان الحياة، وها أنا اليوم مستمرّ في مكاني ريثما يسمح لي الربيع القادم بالعودة إلى فرنسا أما حياة في هذا العالم فقد انتهت وأصبحت أعيش كما تعيش البهيمة ".[(2)]

وشاء لامارتين أن يرّوح على نفسه بعد هذه النكبة القاصمة ، فترك بيروت في الثامن عشر من شهر مارس وراح يطوف في آثار بعلبك ودمشق ، في حين كانت زوجته الحزينة تزور الأماكن المقدسة. [(3)]

وفي الثلاثين من شهر أفريل سافر الشاعر وزوجته وحاشيته إلى يافا ومنها إلى القسطنطينية ، حيث صرفوا شهرين كاملين ، بعد أن أرسلوا نعش جوليا إلى مرسيليا ، وفي منتصف شهر أكتوبر عام 1833 م ، ذهب إلى مرسيليا وسلم النعش ، فحمله تؤا إلى قصر سان بوان ، ودفنه في كنيسته الصغيرة التي حوت رفات والدته ، ويقال أنه ظل طوال تلك اللّيلة يتحدّث إلى روح وحيدته. [(4)]

(1) IBid p 145.
(2) IBid p 152
(3) IBid p 153.
(4) IBid p 153

وفي عام 1834 م ، وبعد مرور أربعة عشر شهرا كتب لامارتين قصيدة رائعة مليئة بالحزن والأسى متحدثا عن موت ابنته جوليا تفوح من الأبيات رائحة من الرائحة التي انبعثت ذات يوم من قصيدته (البحيرة) ، تلك أمور تجعلنا نحكم بأنّ الطبيعة التي أنتجت البحيرة ليست مختلفة كثيرا عن الطبيعة والمناسبة التي تستنتج القصيدة الثانية ، وقد نشر هذه القصيدة في كتابه " رحلة إلى الشرق " قبل أن تنشر في أيّ صحيفة أو ديوان ، وقد نالت هذه القصيدة من الشّهرة ما نالته قصيدة " فكتورهيجو " في ابنته " ليوبولدين " التي ماتت غرقا ، وها هي بعض المقاطع من القصيدة :

كانت الثمرة الوحيدة من تلك الأزهار التي قطفتها
وكانت دمعة في رحيلي ، وقبلة في عـــــودتي
وعيدا دائـــــــما فـــــي بيتي

****

كانت شعاعا من الشّمس على نافذتي ،
وعصفورا غردا يشرب مـــــن فمي
ولحنا موسيقيا يتصاعد في اللّيل قرب مرقدي

****

وكانت أكثر من ذلك كلّه
كانت – واحسرتاه !!- صورة أمّـــــــــي
يخّيل إلّي أن نظرات أمي تعود إلّي في عينيها
وكان صوتها صدى عشر سنوات من الغبطة ،
وكانت قدمها في البيت تملأ الهواء سحرا وعذوبة
وبصرها ينفر الدموع في عيني
وابتسامتها تـــــضئ قلبي

****

لم تكن نظراتي وقلبي

وهي تسكرني غبطة وصلاة ،

لتنتبه إلى أن جبينها يثقل دراعي من يوم إلى يوم ،

وأن قدميها تثلجان يدي كالحجر.

جـــوليا ! جـــوليا ! لماذا تشحبين؟

تكلّمي ! ابتسمي ! وافتحي عينيك لأقرأ فيهما

****

ألى أن زرقة الموت ، كانت تزمر شفتها الوردية ،

وكانت الإبتسامة تموت عليها حالما تولد ،

وأنفاسها القصيرة تزداد سرعة كخفقان جناح ،

وعندما حملت روحها في آخر نفس

مات قلبي في صدري

كالثمرة التي تحملها المرأة في أحشائها

ميتة باردة [1]

(1) عيسى فتوح : رحلة لامارتين الى الشرق بعد قرن ونصف ، مجلة الموقف الأدبي مطابع ألف باء ، الأديب ، دمشق ، العدد 114 تشرين الأول 1980 ص ص 172، 173.

3/ العادات :

العادات هي الأخرى أخذت نصيبا من اهتمام الشاعر ذلك لما تحمل من قيم وأخلاق تبعث على الرفعة ، كالكرم ، الحياء ، الإيثار ، فقد أعجب لامارتين كثيرا بأخلاق العرب ، فكان في كل مرّة وأينما ارتحل يشيد بكرمهم وأخلاقهم يقول عند ذهابه إلى بيروت : " بقينا ثلاثة أيام نسير في طريق وعرة ، فنجتاز المجاري المنحدرة من أعالي الجبال ونمرّ على خيام العرب منتشرة هنا وهناك ، كأنها صخور بيضاء تلمع خلال الأغصان ، وعندما يهبط اللّيل نحل ضيوفا مكرمين على قبائل الفلاحين ، فالشرق يكرم الضيف أيا كان. "(1)

وفي موضع آخر يتحدث عن كرم وجود شيخ الزبداني الذي استقبله في بيته ، " فتقدمت مع ترجماني وطلبت منزلا للمبيت ، فهرع الخدم لإخبار الشيخ فأسرع هو نفسه إلينا : إنه شيخ جليل أبيض اللّحية جميل المظهر، وقدّم لي بيته كله باهتمام وترحيب واستقبال للضيافة ما رأيت مثله من قبل في أي مكان آخر." (2)

أشاد أيضا بالكرم الذي خصّ به من طرف السيد بودان " خصص السّيد بودان كلا منا بغرفة جميلة مؤثثة على طريقة الشرقيين ، فارتحنا على متكآته وعلى مائدته المضيافة من عناء طريق طويلة ، رجل معروف ومحبوب يصادف وسط جمهور مجهول وعالم أجنبي يكون بمثابة وطن كامل ، لقد شعرنا بذلك عندما صرنا في منزل السّيد " بودان " ، والساعات الحلوة التي قضيناها في التحدث عن أوروبا وآسيا في المساء على ضوء مصباحه وسماع خرير نافورة ساحته بقيت في ذاكرتي وفي قلبي من أعذب الراحات في رحلاتي. " (3)

ينتقل لامارتين من الحديث عن كرم العرب إلى الحديث عن بعض العادات كالحياء الذي يطبع النساء العربيات ويتوضح هذا من قوله " ويقوم على مقربة منا بيتان أو ثلاث تشبه بيوتنا في فرنسا ، يوشحها إزار من أشجار البرتقال المزهرة والمثمرة ، وهناك عرب جالسون على البسط ، فوق سطوح بيوتهم يدخنون ونساء تطل برؤوسها من النّوافذ لتبصرنا ، لكنها سرعان ما تحتجب حياء وخجلا (4) .

(1) Lamartine : voyage en orient p 176.
(2) IBId p 176
(3) IBid p 176
(4) IBid 177

وصف بعض عادات النساء عربيات كالتزين بالأزهار والعقود والسوارات ، وكذا بعض العادات العربية عنه تتناول الطعام حتى ظلال الأشجار أو عند عتبة الدار فيقول: " وهناك أسرتان عربيتان تناولان طعام الغذاء في ظلال الشجرة تخييم على عتبة دارهما، وعلى مقربة منهما تحت شجرة أخرى . فتاتان سوريتان لم يقع بصري على أجمل منهما ترتديان ثيابهما في الهواء الطلق وتملآن شعرهما أزهارا بيضاء وحمراء ، شعر إحداهما طويل وكثيف ، يوشك أن يغطي جسدها كاملا ، كأنها هو أغصان الشجرة صفصاف باكية ، تتدلى على جدعها، فتحجبه في جميع أطرافه. (1)

يضيف " لقد ألقيت لها قبضة الغازي ، وهي قطع صغيرة من الذهب تعلقها السوريات بخيط من الحرير، لتصنع منها عقودا و سوارات ، فجمعت كلتا يديها ورفعتهما إلى رأسها لتشكرني ، ثم دخلت إلى الغرفة السفلى لتراها أمّها وأختها ". (2)

تعدّد الزوجات كان من عادات العرب خاصة كبار القبائل وذلك لضمان تواصل المجتمعات وربطها ببعضها وتمديد أواصر الأخوة ولم شمل الأمة الإسلامية وهذا شيخ الزبداني متزوّج من ثلاثة نساء إلا أن الاحترام كان سائدا بينهن يقول لامارتين: " إنهن يرغبن جدا رؤية امرأة أروبية ومشاهدة ثيابها وحلاها ".

وبالفعل مرت النساء الشيخ وهن محجبات بالديوان حيث كن ودخلن غرفة زوجة كن ثلاثا: الواحدة متقدمة في السن كأنها أم الاثنتين الأخريين والصغيرتان كانتا رائعتي الجمال وبدتا كثيرتي الاحترام والاعتبار والحب نحو كبيرتهن في السّن ".(3)

من ضمن عادات العرب أيضا تقديم الهدايا فكل من يدخل القبيلة أو المدينة زائرا إلا وذهب حاملا تذكارا معه وها هي زوجة لامارتين تأخذ هدية من زوجات الشيخ حين حلّت ضيفة عليهن ويتضح هذا في قول لامارتين " وقدمت لهن بعض الهدايا وهن من جهتهن فعلن مثل ذلك ..." (4)

---

(1) IBid 175
(2) IBid 176
(3) IBid 177
(4) IBid 177

يصف لنا الشاعر لباس أغوات البلد وبعض عادات هؤلاء النبلاء فيقول: " إنهم الأغوات لابسون العباءات من حرير قرمزي مبطنة بفرو النمور، ومتقلدون والخناجر المرصعة بالألماس معلقة بالزنار، ويتبعهم خمسة أو ستة من البطانة أو الخدم أو العبيد الذين يسيرون خلفهم وهم يدخنون صامتين ، يمضي أولئك الأغوات إلى المقهى فيجلسون على المقاعد الخارجية تحت ظل أشجار الدلب الجميلة حيث يقضون قسما من النهار فيدخنون ويتحدثون مع أصحابهم " [1] .

ينتقل لامارتين إلى وصف حب العرب للسيوف وتقديسهم لها فهم يقتنونها بأغلى الأثمان لأنها تمثل لهم رمزا للقوّة والهبة والحماية لهذا المقام يقول لامارتين " الأتراك والعرب يقدّرون هذه النصول أكثر من ألماس ويضحون عن كل شيء في العالم من أجل اقتناء سلاح كهذا ، تثير الشر من نظراتهم حماسة واحتراما عندما تقع على نصل السيف فيرفعونه إلى جباههم كما لو كانوا يعبدون آلة الموت كاملة إلى هذا الحد ". [2]

لم يقدّس العرب السيوف وحدها بل كانوا يقدّسون كل ما من شأنه أن يمنح الحماية للإنسان كالخناجر والسيوف مثلا ، وليس هناك هدية في نظرهم أفضل من الأسلحة ونلمس هذا من خلال قول لامارتين حين قدّم هدية لشيخ الزبداني" أعجب الشيخ كثيرا بسلاح ولاسيما بمسدسي ، لم يستطع أن يخفي جيّدا السرور الذي يسببه له امتلاك السلاح ولكنني لم أكن قادرا على تقديمه له : فهما مسدسان للمعركة كنت أريد الاحتفاظ بهما حتى عودتي إلى أوروبا ، فقدّمت له هدية ساعة ذهبية إلى زوجته فأخذ الهدية مع كل الممانعة المهذّبة التي تصدر عنّا في أروربا لقبول مثلها يظهر أنه راض تماما مع أنّي ما شككت قط في تفضيله المسدّسين وجيء لنا بكمية من المخدّات والبسط من أجل النوم ، ففردناها في الديوان الذي كان هو ينام فيه ، ونمنا على صوت خرير النهر الذي كان يجري تحت أسرّتنا " [3]

---

(1) IBid 176
(2) IBid 177
(3) IBid 178
(4) IBid 178

4/ المـــــكان:

خلال الرحلة كان الشاعر لا يترك مكانا جميلا إلا وصفه ، وأغدق في وصفه فلم يترك صغيرة ولا كبيرة فقد وصف الشجرة ، الأكمة ، الوادي ، النهر ، الأرصفة ، البيوت لهذا حين وصل إلى الزبداني قال: " ليس فينا أحد كان يعلم بوجود هذه الواحة الخلاّبة في وسط جبال لبنان الشرقية الوعرة، كنا نقترب طبعا من مدينة أو قرية نجهل اسمها ، وصادفنا فارسا عربيا قال إننا على مقربة من قرية كبيرة تدعى الزبداني وبدأنا نرى الدخان المرتفع منها فوق أعالي الأشجار الكبيرة الثابتة في الوادي ، حتى دخلنا شوارع القرية ، إنها عريضة ومستقيمة ذات أرصفة من حجارة، والبيوت التي على جانبها كبيرة وحولها باحات ملأى بالحيوانات وبساتين مروية ومزروعة تماما ، النساء والأولاد يهرعون إلى الأبواب ليرونا ونحن نمر، ويستقبلوننا بوجوه باشة باسمة سألنا. إذا كان يوجد فندق نستطيع أن ننزل فيه لنبيت ليلة ؟ فأجابونا بالنفي لأن الزبداني ليست على أي طريق ولا تمرّ بها أي قافلة ، وبعد أن سرنا طويلا في شوارع القرية وصلنا إلى ساحة كبيرة عند حاقة النهر فوجدنا هناك بيتا أكبر من البيوت الأخرى وفي مقدمته مصطبة محاطة بالأشجار فعلمنا أنه منزل الشيخ ، فتقدمت مع ترجماني وطلبت منزلا للمبيت فهرع الخدم إلى إخبار الشيخ فأسرع هو نفسه إلينا إنه شيخ جليل أبيض اللّحية جميل المظهر، وقدم بيته كله باهتمام وترحيب واستقبال للضيافة ما رأيت مثله من قبل في أي مكان آخر ... وخلال هذا اللّقاء جاء بنا الشيخ إلى مصطبة كان بناها قرب منزله عند حافة النهر تحملها ركائز مغروزة في مجرى النهر نفسه ، وكانت تلك المصطبة مغطاة بالبسط وعلى جوانبها ديوان، تظللها هي والنهر شجرة ضخمة كالتي كنت رأيتها عند حافة الطريق ،وهنا في ظل الشجرة التي يأوي ويغرد على أغصانها ألف طائر يقضي الشيخ أوقات فراغه كما يفعل جميع الأتراك في الإصغاء إلى خرير الماء والتمتع بمرأى مياه النهر الباردة المزبدة الجارية تحت ناظريه، جسر من الألواح يصل إلى البيت بهذه المصطبة المعلّقة إن هذا المكان هو أحد أجمل الأمكنة التي شاهدتها في رحلتي، البصر ينزلق على آخر تلال جبال لبنان الشرقية المكورة التي تشرق على أهرام صخر أسود أو قمم من الثلج وينحدر مع النهر وأمواجه المزبدة فيما بين قمم أشجار غابات مختلفة غير متساوية

ترسم مجراه حتى تضيع وإياه في سهول ما بين النهرين المنحدرين التي تمتد مثل خليج من خضرة في منعرجات الجبال. [1]

في اليوم التالي واصل الشاعر سيره في قرية الزبداني وقد أعجب بمناظرها الخلابة حتى أنه شبهها بأروع المناظر في إنجلترا ولومبارديا ونستدل بقوله : " في اليوم التالي عند طلوع النهار اجتزنا النصف الثاني من قرية الزبداني وهو أجمل مما رأيناه في اليوم السابق وأمر الشيخ بعض رجال عشيرته بأن يرافقونا حتى دمشق . عندها سمحنا لفرسان أمير بعلبك بالعودة لأنهم قد لا يكونون في مأمن في أرض دمشق فسرنا ساعة في طريق يحدّها سياج حي واسع ومعتنى به كثيرا ، كما في فرنسا. الطريق تظلله قبة من أشجار المشمش والاجاص . وتمتد على جانبيه يمينا وشمالا حدائق لا نهاية لها ثم حقول مزروعة فيها أناس كثيرون وحيوانات . جميع هذه الحدائق ترويها سواق تنحدر من الجبال التي إلى الشمال المكسوّة قممها بالثلج والسهل فسيح ولا شيء يحده في نظرنا سوى غابات الأشجار المزهرة ، وبعد ثلاث ساعات من السير كما لو كان وسط أجمل المناظر في إنجلترا ولومبارديا ، دون أن يذكرّنا شيء بالصحراء والبربرية ، وصلنا إلى أرض قاحلة وعرة لا يرى فيها كليا تقريبا بيت ولا زرع ، التلال الصخرية التي لا يكاد الطحلب الأصفر يغشيها تمتدّ أمامنا تحدّها الجبال الجرداء الرمّادية اللّون، نزلنا في خيامنا عند سفح تلك الجبال بعيدا عن كل مكان مأهول ونمنا ليلتنا هناك على ضفة سيل ضيق وعميق يسمع له دوي كدوي رعد لا ينتهي في شعب من الصخور يجري فيه ماء عكر ورضاب ثلج[2] .

ينتقل الشاعر إلى وصف طريق ذهابه حتى وصوله إلى بيت السيد " بودان" فيقول :" وسرنا زمنا في متاهة أزقة مظلمة ضيقة وقذرة ، وكانت تشّكل هذه الشوارع بيوت صغيرة وطّيئة ، جدرانها من طين ، كأنها على وشك أن تسقط علينا ، وكنا نشاهد من خلال شعريات النوافذ وجوه صبايا أرمنيات فاتنات أسرعن لدى سماعهن ضوضاء قافلتنا وخيولنا ، فكن ينظرن إلينا ونحن نعبر ويوجها إلينا كلمات تحية ومودّة ، وأخيرا وقفنا عند باب صغير وطيء وضيق في شارع لا يمكن اجتيازه إلا بصعوبة فترجلنا عن خيولنا وسرنا في ممشى معتّم

(1) IBid p 154.
(2) IBid p 155

ومنخفض وفجأة وجدنا أنفسنا في باحة مبلّطة بالرخام تظللها أشجار الجميز ويبرّدها ينبوع ماء حولهما أقواس من المرمر وأبهاء فخمة الزينة : كنّا في منزل السيد بودان " (1)

لم يعجب الشاعر كثيرا بحارات دمشق ولا بشوارعها ذلك لما تحويه من بيوت مصنوعة من الطين وتداخلها ببعضها ونوافذها الصغيرة إضافة إلى شوارعها القذرة ، فليس هناك ما يسرّ الناظر لكنه بعد ذلك يفتن بهذه البيوت حين يدخلها من شدّة أناقتها فيقول :" تجوّلت هذا الصباح وأنا مرتد ثيابا عربية صميمة ، في أهم حارات دمشق لا يرافقني سوى السيد " بودان " خشيته أن تلفت الانتباه إلينا وجوهنا غير المعروفة لو كنا جماعة، فسرنا أوّلا مدّة طويلة في شوارع حارة الأرمن المعتّمة القذرة والمتعرّجة ، كأنها إحدى أبأس قرية في مقاطعتنا ، البيوت مبنية بالطين ، تتخلل بعض جدرانها من جهة الشارع نوافذ صغيرة ونادرة مشبكة درفاتها مدهونة باللّون الأحمر، إنّها منخفضة وأبوابها أكثر انخفاضا وشبيهة بأبواب الإسطبلات ، كومة من أقدار الشوارع ومستنقعات صغيرة من الماء والوحل في كل مكان تقريبا حول الأبواب لكننا دخلنا بعض منازل أبرز التجار من الأرمن هناك وقد أدهشتني أبّهة هذه الدور وأناقتها من الدّاخل بعد أن ولجنا الباب واجتزنا دهليزا معتما وجدنا أنفسنا في باحة مزدانة بينابيع تتدفق وهي من الرخام تظللها شجرتان من الجميز و الصفصاف الفارسي ، وهذه الباحة مبلطة ببلاطات عريضة من حجر مصقول أو من الرخام . الدوالي تغطي الجدران ، وهذه الجدران مكسوّة بالرّخام الأبيض ، خمسة أو ستة أبواب دعائمها من الرّخام أيضا منقوشة نقوشا عربية تؤدي إلى غرف أو أبهاء حيث يقيم رجال العائلة ونساؤها . وهذه الأبهاء رحبة وذات قبب، ولها شبابيك كثيرة وصغيرة مرتفعة جدا لتتيح للهواء الخارجي أن يأتي ويذهب بحرية وبدون انقطاع .وهذه الأبهاء كلها تتألف من قسمين القسم الأوّل منخفض حيث يقف الخدم والعبيد، والقسم الثاني أعلى من الأوّل ببضع درجات ويفصل بينهما إربزون

(1) IBid p 18.

من رخام أو من خشب الأرز المقطّع تقطيعا رائعا . وفي وسط هذه الردهات أو في زواياها فسقية أو فسقيتان يسمع خرير الماء فيهما ،حافتهما مزدانة بمزهريات طيور من السنون أو حمامات خاصة تأتي بحرية وتقف على جوانب تلك الأحواض لتشرب ، جدران الغرف مكسوّة بالرّخام إلى علو معين .

والقسم العلوي مكسو بالجبس وعليه رسوم عربية من ألف لون وكثيرا ما تكون مزركشة بنتوءات ذهبية مثقلة جدا. والأثاث مؤلف من سجاد عجمي أو بغدادي بديع يغطي من كل جهة أرض الغرف التي هي من الرخام أو من خشب الأرز ، ومن كمية كبيرة من المساند والفرش الحريرية مبعثرة وسط الغرفة وهي تستعمل مقاعد لأفراد العائلة أو مساند لظهورهم وفي صدر الردهات وعلى جوانبها أرائك مغطاة بأنسجة غالية وبسط غاية في الرقة . النساء والأولاد يجلسون عادة هناك أو يضطجعون وهم يقومون بمختلف الأعمال المنزلية. ومهود الأطفال وسط الغرفة فيما بين هذه السجاجيد وتلك المساند إحدى هذه الردهات دائما لرب البيت وحده وفيه يستقبل الغرباء. كثيرا ما يرى جالسا على أريكته وإلى جانبيه على الأرض محيرته الطويلة ، المقبض وورقة مسندة إلى ركبتيه أو إلى يده اليسرى وهو يكتب أو يحسب كل النهار لأن التجارة هي الشغل الشاغل لسكان دمشق وعبقريتهم الوحيدة " [(1)]

ينتقل الشاعر إلى وصف قصور أغوات دمشق ثم زيارته لصديقي السيد" بودان " وهما بدورهما من نبلاء البلد فيقول: " وبعد هذه الزيارات المختلفة غادرنا حارة الأرمن المنفصلة عن حارة أخرى بباب يقفل كل مساء . وجدت شارعا أعرض وأجمل وهو مؤلف من قصور الأغوات دمشق ، إنهم نبلاء البلد ، واجهات تلك القصور من ناحية الشارع تشبه جدران سجون طويلة ، وهي من طين رمادي النوافذ فيها نادرة أو معدومة ، كنا نصادف من وقت لآخر بوابة كبيرة مفتوحة على باحة وكنا نرى عددا من السوّاس والخدم والعبيد السود مضطجعين في ظل الباب. لقد زرت صديقي للسيد بودان من هؤلاء الأغوات "[(2)] .

(1) IBid p 137.

(2) IBid p 138.

بعدها يصف لنا الشاعر دمشق بما تحمله من أسواق ، شوارع ، حوانيت ، مخازن ، مقاهي ، دكاكين ، فيقول : " وتجولت في أسواق دمشق ، السوق الكبيرة يبلغ طولها تقريبا نصف فرسخ أي نحو كيلومترين ، والأسواق شوارع طويلة مسقوفة بأخشاب مرتفعة جدا، وعلى الجانبين حوانيت ومخازن ومقاهٍ ودكاكين صغيرة ضيقة وقليلة العمق ، التاجر يجلس القرفصاء أمام دكانه وهو يدخن الغليون أو النرجيلة التي إلى جانبيه ، المخازن ملأى دائما بالبضائع من كل نوع ولا سيما من أقمشة الهند التي تتدفق على دمشق بواسطة قوافل بغداد ، الحلاقون يدعون المارة إلى حلق شعورهم ، دكاكين مكتظة دائما بالزبائن . جمهور كبير يمر كل يوم بالسوق الذي يمر بكالوري القصر الملكي.لكن نظرة هذا الجمهور الخاطفة لا نهاية لروعتها . إنهم الأغوات لابسون عباءات من حرير ... " [1]

(1) IBid p 212.

IV. موقف لامرتين من الشرق :

لم يكن لامرتين كأولئك الكتّاب الأوربيين الذين مرّوا في هذه البلاد مرور الطيف واكتفوا بأسبوع أو أسبوعين ليكتبوا عنها المجلّدات، ويصفوها من أطرافها إلى أطرافها ، بل كان من أولئك الذين يحترمون أنفسهم ، ولا يبخسون الآخرين حقوقهم في تقاليدهم وعاداتهم ، ولا يشوّهون أشياءهم الجميلة بفلتات من ألسنتهم تدل على تحاملهم وجهلهم ، كان أوّل من عرّف الأروبين إلى سوريا ولبنان ، وكشف لهم تلك الكنوز الشعرية الدفينة فيها ، ونظر إلى آثارنا نظرة احترام وإعجاب وتقدير ، وهو يعلم حق العلم أنها ليست بقايا مدافن طواها الزمن ، بل شواهد ناطقة لمدينة عظيمة ، لا تزال الحياة تنبض في رسومها وأثارها .[1] هذه الأخيرة اغتنت نفسه بها وحمل أسرارها إلى بلاده فها هو يصرّح بروعة المناظر في الزبداني وهي إحدى المدن الواقعة في سوريا فيقول: " إنا هذا المكان هو أحد أجمل الأمكنة التى شاهدتها في رحلتى" [2].

أحب الشاعر طريقة الضيافة عند العرب فقد أحس بالراحة في بيت السيد بودان فقال : " رجل معروف ومحبوب يصادف وسط جمهور مجهول وعالم أجنبي يكون بمثابة وطن كامل. لقد شعرنا بذلك عندما صرنا في منزل السّيد بودان ، والساعات الحلوة التي قضيناها في التحدّث عن أوروبا وآسيا، في المساء على ضوء مصباحه وسماع خرير نافورة باحته بقيت في ذاكرتي وفي قلبي من أعذب الراحات في رحلاتي. " [3]

إن في روح لامارتين وفي مخيّلته جمالا شرقيا طغى على الجمال الغربي الذي انحصرت آياته لدى انعكاس المشاهد الشرقية عليها [4] ، تلك لعمري ميزة كشف من خلالها عن ثروات روحية جمّة لدى بعض العرب عجز نظراؤه من الشعراء الغرب عن كشفها أمثال شاطو بريان ، وهذا إن دلّ على شيء إنما على امتلاكه " بصيرة داخلية " مكنته من الوعي بجمال الشرق وها هو يعطينا أوصافا لأحد العرب مشيدا ببعض الأخلاق الرفيعة التي تميز

(1) IBid p78.
(2) IBid p 79
(3) IBid p 79
(4) IBid p 80.

المجتمع العربي دون سواء من المجتمعات الأخرى فيقول السّيد "بودان " من الرجال النادرين الذين هيأتهم الطبيعة لكل شيء ذكاء واضح ، وسرعة في الخاطر وقلب مستقيم حازم ، نشيط لا يكّل سواء أكان في أوروبا أم آسيا ، في باريس أم دمشق في البر أم البحر فأنه يرتاح لكل شيء ويجد سعادة وصفاء في كل مكان لأن روحه كروح العربي مستسلمة إلى القانون الكبير الذي يشّكل جوهر الدين المسيحي والإسلامي ألا وهو الخضوع لمشيئة الله ، ولأنه يحمل أيضا في نفسه عقلا حاذقا نشيطا هو روح ثانية للإنسان الأوروبي، تكيفت هيئته ولسانه وعاداته حسبما شاءت لها ثروته أن تتكيف ، ومن يراه يتحدّث إلينا عن فرنسا وسياستنا المتحركة يضن أنه رجل وصل أمس من باريس وسيعود إليها في اليوم التالي . والذي يرى السّيد " بودان " مساء مستلقيا على متكئه بين تاجر من البصرة وحاج تركي من بغداد وهو يدّخن الغليون أو النرجيلية وحبات المسبحة الشرقية الكهرمان تنساب بين أصابعه ببطء ، وعلى جبهته عمامة وفي رجليه بابوج ، يقول كلمة كل ربع ساعة بخصوص سعر القهوة والفراء ، يظن أنه تاجر رقيق أو حاج عائد من مكة ... " [(1)]

إن حب التطلّع وروح الاستكشاف لدى لامارتين وإدراكه لجمال الشرق حفزّه على أن لا يترك مكانا فيه إلا وزاره ، فلا تهديدات الباب العالي ولا الخوف من تدخل إبراهيم باشا ولا حتى حاميته المؤلفة من إثني عشر ألف جندي وقف أمام إرادته للدخول إلى دمشق ومواصلة رحلته بها وفي هذا الصدد يقول " ... بالرغم من تهديدات الباب العالي بل بالرغم من التخوف من تدخل إبراهيم باشا وحاميته المؤلفة من اثني عشر ألف جندي مصريين وأجانب لم يقبل سكان دمشق أن يدخل المدينة قنصل إنكلترا العام في سورية ، لقد حدث في المدينة تمرّدان هائلان لمجرّد وصول الخبر بمجيء القنصل ولو لم يرجع من حيث أتى لكان مزّق إربا ، والأمور مازال هكذا على ما كانت عليه ، فقدوم أوروبي في لباس أوروبي قد يكون إشارة لفتنة جديدة ، وقد ساورنا قلق من أن يكون خبر مجيئنا قد بلغ دمشق فيعرّضنا إلى أخطار جدّية ، اتّخذنا جميع التدابير الممكنة لبسنا كلنا ألبسة عريقة جدّا في تركيبتها ، أوروبي وحيد إقتبس أخلاق العرب تزيّا بزيهم ..." [(2)] .

---

(1) IBid p 101

(2) IBid p 102

7. فلسطين في كتابات لامارتين:

يقول لامارتين في مقدمة كتابه :" هذا ليس كتابا ولا رحلة ، لم أفكّر أبدا في كتابة لا هذا ولا ذاك ، أو في قول شعر عن الشرق ، فعلها شاتوبريان في مذكراته حول الرحلة . هذا الكاتب والشاعر الكبير لم يفعل سوى المرور على هذه الأرض المليئّة بالعجائب لكنه رسّخ إلى الأبد ذاكرته العبقرية فوق غبار هذه الأرض التي حرّكتها القرون. لقد ذهب إلى القدس بوصفه حاجا وفارسا ممسكا بالإنجيل والتراث في يدّه وكأنه في حرب صليبية. أما أنا فلم أمّر إلّا بوصفي شاعرا وفيلسوفا . وقد حملت معه انطباعات عميقة ومعلومات عميقة وخارقة في عقلي .

إن الدراسات التي قمت بها حول الديانات والتاريخ والعادات والتقاليد ومراحل الإنسانية لم تكن مُضيعة لدّي . ساهمت هذه الدراسات في توسيع أفق معرفتي الضيق ، وقد وضعت أمام العقل المشكلات الكبرى الدينية والتاريخية التي تدفع المرء إلى العودة على خطاه ، إلى تسجيل قناعته وإعادة صياغة الأمور من جديد ، إن هذه الحميمية التي تتميز بها التعليمية هذه الأمكنة هي فكرة مبنية على فكرة منتزعة من الأماكن والأحداث ، وبمقارنة الأزمنة مع الأزمنة والتقاليد مع التقاليد والمعتقدات مع المعتقدات كل هذا لا يضيع لدى المسافر أو الشاعر أو الفيلسوف . هي عناصر تشكل الشعرية والفلسفة [1] .

من خلال هذا الانطباع نفهم أن لامارتين لم يكن يريد كتابة شعر ، إنما أخد منه الانطباعٌ كل مأخذ فتهاوت الكلمات والأوزان لتفتح المجال أمام لغة شعرية مليئة بالمواقف التي تعرّف بالمشرق وعناصره.

يعالج شاتوبريان كل القضايا المتعلقة بالأحداث والمعلومات التاريخية ، لقد كان يقول كلمة بكلمة كل ما تعلق بحيثيات الرحلة فالرحلة في نظره وصف تام وأمين للأوطان التي يمر عليها الرحالة والأحداث الشخصية التي تجري له كما أنه لا يترك الحدّيث من الانطباعات حول الأماكن والعادات [2]

(1) Ibid p 103
(2) IBid p104

تلك أمور تتعلق بالرحلة بصفة عامة وقد تحدث لامارتين عن هذا الصدّد عن "ميشو" الذي قام برحلة إلى الشرق وعن " دي لابورد " الذي ارتحل إلى إسبانيا ، وغيرهم من الرحالة الذين تنقلوا بين ربوع هذا العالم الجميل أما رحلة لامارتين فإنها تتميز عن سواها بأنها رحلة في عالم الديانات وعالم الصدمات وعالم الأساسات الحضارية . هي رحلة تذكر برحلة " بونابارت " لكنها لا تضمن للقارئ حديثا عن الصدمات الدامية إنما تبعث فيه إحساسا بدفيء التاريخ وتنوع الجغرافيا والعادات وجماليات الطبيعة . في المشرق يلتقي الرحالة بالأحاسيس ويشرب من الديانة ويحس بالراحة والمتعة أيها القاري يقول لامارتين :" فلنصغ إلى المعارف ولنتمسك بالأشياء الهاربة والانطباعات الشكلية التي يطلقها رحالة يمشي دون توقف [1].

شكلت الرحلة لدى لامارتين معلومات ردمت فجوة في نفسيته أحدثها مرض ابنته جوليا وموتها فيما بعد .هو كاتب رومانسي قيل كل شيء ، تؤثر فيه المظاهر الطبيعية وتبعث فيه الخلجات النفسية والرؤى والانطباعات ، لذلك لم يترك خلال رحلته أمرا أو منظرا أو حدثا إلاّ وصفه ، من الأمواج إلى السماء ، إلى الباخرة إلى الرّبان إلى المرافقين ومن بعدها اسبانيا وسوريا وبعلبك ثم يافا والقدس ونهر الأردن وغيرها ، لذلك تعدّ رحلة لامارتين الخيالية من التحيّز وثيقة رومانسية رحلية متميزة وفريدة.

(1) Ibid p105

1- المـــــكان:

أ- المكان في العمل السردي:

لا يكاد النقاد الغربيون يصطنعون مصطلح " المكان " ، إلا عرضا ولدلالات خاصة وعبر حيّز ضيق من نشاطهم ، أما المصطلح الشائع والذين يعنون بهم كتبهم ومقالاتهم فإنما هو الحيز المقابل الأجنبي (ESPACE, SPACE) بالفضاء في الحال والمكان في حال أخرى والحيز لدى غريماس " (GREIMAS) هو " الشيء المبني (المحتوى على عناصر متقطعة) انطلاقا من الامتداد المتصور ، هو على انه بعد كامل ممتليء دون أن يكون حلّ لاستمرارية ويمكن أن يدرس هذا الشيء المبني من وجهة نظر هندسية خالصة " [1]

أنه لمن المستحيل على محللّ النّص السردي أن يتجاهل الحيز فلا يختصه بوقفة قد تطول أكثر مما تقصر ، كما أنه يستحيل على أي كاتب روائي أن يكتب رواية خارج إطار الحيّز ، فالحيّز مشكّل أساسي في الكتابة الحداثية .[2]

وعلى الرغم من أنّ الروائيين الجدد اعتدوا يتعاملون مع الحيّز الروائي لتقنيات جديدة كالتقطيع والإنطاق أو الأنسنة والتشخيص (وذلك بربطه بالأسطورة ...) فإن الحيّز غاليا ما ينظر إليه في هذا الإطار من الوجهة الجمالية لا من الوجهة التقنية ، فكأنه حلة تتزين بها الرواية وتختال [3] كما أنه من العسير ورود الحيّز منفصلا عن الوصف ، وحتى إذا سلّمنا بإمكان ورود خاليا من هذا الوصف فإنه حينئد يكون كالعاري فالوصف هو الذي يمكّن للحيّز في التبوء فيتّخذ مكانة امتيازية من بين المشكّلات السردية الأخرى مثل اللغة والشخصية والزمان [4].

ب- مظاهر المكان :

وللمكان مظاهر معروفة يمثل فيها وهي في تمثلنا :

---

(1) Greimas et courtés , dictionnaire raisonné de la théorie du langage, espace .p 15.

(2) عبد المالك مرتاض : في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ديسمبر 1998 ص ص 141-142.

(3) المرجع نفسه ص 143.

(4) نفسه ص 143.

1- المظهر الجغرافي :

إنّ مفهوم الجغرافيا يعني كما يدل عليه أصله الإغريقي" وصف الأرض " [1] والحق أن هذا اللفظ مركب من جذرين إثنين سابقة (Gé) ومعناها الأرض ولاحقة (GRAPHE , GRAPHIE) معناها أو معناهما " الكتابة فكأن لفظ الجغرافيا انطلاقا من أصله الإغريقي القديم يعني علم المكان أو مثول المكان في مظاهر مختلفة وأشكال متعددّة ، الجبال والسهول والهضاب والوديان والغابات والتلال ...الخ .غير أن الجغرافيا أصبحت تنصرف إلى تحديد أمكنة بعينها ذات حدود تحدها وتضاريس تتسم بها.

ولما كان المكان (الحيّز) الروائي يعكس مثول الإنسان في صورة خيالية(الشخصية)فإن هذه الشخصية ما كان لها لتضطرب إلى في حيّز جغرافي أو في مكان .

إن الحيّز (المكان) مظهر من مظاهر الجغرافيا لكنه ليس بها.

وقل إن شئت أنه أكبر من الجغرافيا مساحة وأشسع بعدا فهو امتداد ، وهو ارتفاع وهو انخفاض ، وهو طيران وتحليق ، وهو نجوم من الأرض وهو غوص في البحار، وهو انطلاق حول المجهود وهو عوالم لا حدود لها ، بينما الجغرافيا بحكم طبيعتها المتمحضة لوصف المكان الموجود لا المكان المفقود ولا المكان المنشود الذي يحلم الإنسان برؤيته خارج إطار الأرض ، لا تستطيع إستكشافه ولا الوصول إليه [2] .

2- المظهر الخلفي :

يمكن تمثّل المكان (الحيّز) بواسطة كثير من الأدوات اللّغوية غير ذات الدلالة التقليدية على المكان مثل الجبل والطريق والبيت والمدينة ... الخ .وذلك بالتعبير عنها تعبيرا غير مباشر مثل قول القائل في أي كتابة روائية : سافر، خرج ، دخل ، أنجز ، ركب الطائرة ، سمع المؤذن ، مرّ بحقل ...[3].

---

(1) Paul Robert , dictionnaire alphabétique et analogique et la langue française , géographie ,p 62.

(2) عبد المالك مرتاض ، سبق ذكره ص 144.

(3) المرجع نفسه ص 144.

فمثل هذه الأفعال أو الجمل تحيل إلى عوالم لا حدود لها ، وهي كلّها أحياز في معانيها، فالذي يسافر يتحرك ويتنقل ويتحمل، وهو لا يخلوا من أحد الأمور وذلك بناءا على سياق السرد فغما أن يسافر راجلا أو على بعير ، أو حمار، أو فرس، وإما في عربة تجرها الدّواب ... الخ.

ثم إن الذي يسمع المؤذن يعني أنه هو في نفسه حيّز، حي فيسمع ويرى ويعقل ، وأنه يعيش في بلاد الإسلام وأن ذلك الآذان يحيل إلى مكان هو المسجد ، وعلى زمان هو أوان إحدى الصلوات الخمس المفروضة على المسلمين يوميا [1] .

لا يجوز لأي عمل سردي (حكاية ، خرافة ، قصة ، رواية) أن يضطرب بمعزل عن الحيّز(المكان) من هذا الاعتبار عنصر في تشكيل العمل الروائي حيث يمكن ربطه بالشخصية واللّغة والحدث ربطا عضويا [2] .

جـ - المكان في رحلة لامارتين:

كان المكان الذي خيّمنا فيه يبعد عن القدس بمرميي بندقية على جانب المقبرة التركية [3] يصف لامارتين إذن كل ما تقع عليه عينه وحين وصلوا إلى بيت لحم استقبلهم حاكم هذه المدينة . لكنه لم يكن باستطاعته أن يحدثهم لقد صار عارفا باللغة العربية جاهلا اللغة الفرنسية " اللاتينية) لذلك أرفق معه مجموعة من الرجال الذين وصفهم لامارتين بعناية مستفيضة لباسهم ، عصيهم المصنوعة من الذهب والفضة [4] كل هؤلاء بمثابة المترجمين الذين اقتادوا الضيوف عبر باب بيت لحم . ذلك الباب الذي يحف به الظلام . هو الظلام الذي يفتح المكان فيما بعد أمام فجوة توصل إلى معبر مليء بالبيوت الصغيرة الفقيرة .

---

(1) المرجع السابق ص 145.
(2) نفسه ص 146.
(3) Lamartine voyage en orient .p 254.
(4) IBid 254.

يتحدّد المكان لدى لا مارتين وفق طرق سردية مضبوطة تنطلق من العام لتصل إلى الدقيق أو العكس ، يقول لامارتين " إن أسوار المدينة " منهارة جزئيا ، لذلك كنّا نخشى على أنفسنا الظلام ولكننا نغشى أيضا سقوط الأوساخ علينا. لم نكن نرى في تلك الأمكنة سوى عصا الحاكم تشع منها لفحات ضوئية " [(1)].

القدس مكان يحج إليه المسيحيون ومعتنقوا سائر الديانات الأخرى. هي بلد السلام وبلد الأمان تغني به العديد من الشعراء والأدباء وقد تحدث عنها كما علمنا شاتو بريان ، أما لامارتين فإنه يقول عنها :" لا شيء يوحى بأن القدس قلب أمة. ليست هناك علامة غنى ولا حركة حياة وقد خدعنا الشكل الخارجي كما خدعنا في أماكن عديدة قبل هذا في اليونان وفي سوريا .إن أكثر الأماكن والمواقع بأسا في الألب وفي جبال البريني وشوارع المهملة في بطاحنا التي يسكنها المعدمون من العمال ، هذه الأماكن أكثر نظافة ورقيا وجمالا من هذه الشوارع التي بجوبها في قلب مدينة القدس " [(2)] .

ولم يكن أساس الرحلة لدى لامارتين هو الهدف الديني كما هو الشأن للسابقين واللاحقين فيما بعد كان الهدف فيما يبدو هو المتعة ودفع السأم والترويح عن النفس وعن العائلة أيضا فقد جاب كل الأماكن الموجودة في أقطار المشرق وتعرّف إلى الشيوخ وخصائصه وجاب سوريا ولبنان وأطراف الأردن ليلج فلسطين عبر يافا ثم القدس ، تلك تمفصلات مكانية تشعر الغريب برهبة المكان وغرائبية الطباع وتعاسة الوجود قد تكون المقارنة متأصلة في نفسية لامارتين فهو في كل لحظة يتذكّر فرنسا وأوربا وشموخها الحضاري وعلو شؤوهما في المجال الاجتماعي ، أما القدس فإن" رجال الدين فيها لا يعثرون على سكنات محترمة بيوتها متهرئة رغم التعديلات التي يقوم بها بعض الإسبان والبنائين الإيطاليين الذين يتكلمون هذه اللغة
ولا يفهم عنهم أحد كما أنهم لا يفهمون عن الفرنسية شيئا " [(3)]

---

(1) IBid p 254
(2) IBid p 254.
(3) IBid p 255.

وصف لامارتين المغازات التي توفر لناس بعض الحاجيات اليومية مرّ بها لامارتين وجماعته محملّين برسائل من قبرص وسوريا بعث بها رجال الدّين هناك إلى زملائهم في القدس كان كل شيء نحمله أو نريد أن نعطيه يمر عبرّ عملية نقتبس دقيقة متناهية ثم يوضع في إناء من الماء الباردة. (1)

يكتب لامارتين هذا وفي نفسه نوع من العجب يتعجب طبعا من إصرار هؤلاء على ممارسة هذه المركبات التي تهدف إلى تقنية الحمولة من أخطار المرض والعدوى التي شاعت نتيجة ظهور مرض الطاعون " قطرة واحدة يمكن أن تجعل مصفرا كل القدس" (2). وبعد ذلك ينتقل لامارتين إلى وصف الأجزاء المكانية الأخرى " الناقوس الذي ينادي الناس لأداء الصلاة والساحة التي تحيط بالمهد وبعد ذلك تأتي السلالم التي تؤدي إلى الشارع ساحة صغيرة مفتوحة إلى الشمال في جهة تراها العين تؤدي إلى تلة الزيتون المنفتحة على سهول شاسعة(3).

إن الأوصاف السابقة تأكد ارتباط لامارتين بالجانب الديني لذلك ينطلق دائما من حميمية العلاقة المكانية بالعاطفة الدينية .

لم يكن لامارتين حاجا لكنه كاد أن يغدوّ كذلك وقد أثر فيه المكان تأثيرا بالغا بدّل تفكيره ونظرته إلى الشرق الذي لا يمثل الأمور المتعلقة بالبدو والخيم والفرسان وإنما قد يكون ممثلة في الجمال المكاني كالجبال والأودية ، يقارن لامارتين بين مكانة القدس في نفوس المسيحيين خاصة بمكانة مكّة المكرمة والكعبة .وهو ما يثبت قولنا السابق وهو أن لامارتين قد تأثر كثيرا بوجوده في حضرة كنيسة المهد في بيت لحم ثم في بيت المقدس بعد ذلك.

حين يقرر أبو الغوث وحفيده الانتقال مع لامارتين وجماعته يكون الهدف ضفاف نهر الأردن هو نهر يربط بين فلسطين والأردن ويشهد على العلاقة التاريخية المتواشجة بين البلدين يقع المسلك الأساسي في عمق الوادي المحفوف بالجبال تسكنه جماعة من العائلات العربية وبعض المسيحيين .هناك رأينا منبعا صالحا يسحب عربي منه الماء في جرار

(1) IBid p 256.
(2) IBid p 256
(3) IBid p 256.

مربوطة إلى مجموعة من الدّواب المتراصفة لتأخذ مسلكا منحوتا في سفح جبل. يركّز لامارتين كثيرا على أشجار الزيتون هي رمز للسّلم ورمز للوئام. إن الأمكنة في النصوص السردية هي التي تخدم الشّخوص لأنها تحدد مجالات انتقالهم وقد قسّمها الدارسون إلى أماكن: أماكن قارة كالبيت والمقهى وأماكن مفتوحة كالمساحات اللامحدودة و الفضاءات المتناهية، هذا الفضاء الذي يصفه لامارتين فضاء مفتوح يزيد في حدّة التأمّل ويلقي بالإنسان في غياهب التاريخ ،هي مساحة محدودة بمجموعة من دول الجزيرة العربية ، السعودية تحديدا بلاد فارس والهند هي البلاد التي ربط السالمون SALOMON معها علاقات متواشجة إنّه دون شّك هو الذي ربط بهذه الطريق التي أنشاها بين كل تلك الدّول والشّعوب وهي دون شك السبيل الذي مرّ عليه اليهود في المرة الأولى قبل الوصول إلى الأردن والمرور عبر هذه الأفضية الفارغة من البنايات التي يزرع فيها الريح غبارها قبل أن تمرّ تلك الجبال المعرّاة الحزينة . يغدو عند لامارتين سببا في الحالة النفسية الحزينة التي يمكن أن يؤول إليها أشخاص، أشكال سوداء و طبيعية جرداء وحولها مساحات مقفرة وبيداء ، كما أنّ الصخور الواقعة أمام تلك الرياح لم تستطع تغيير هذا المنظر الذي يدفعه على اليأس ، تلك التيارات الهوائية المتحركة القوية لم يكن في مقدورها إعادة تشكيل الطبيعة الموروثة.

إن المجال لا يسع هنا للحديث عن الزمنية المستعملة في النّصوص التي نجدها في كتاب الرحلة إلى الشرق والتي وظفت فيها الصرامة والدّقة المتناهية في تحديد الفقرات الزمانية فهي لم تجعل النص ميتا إنما جعلته أكثر حلاوة وتلك أمور لا تتأتّى إلاّ لأن الذي أنتجها هو الشاعر لامارتين .

تبدو الأمكنة المنغلقة في نصوص لامارتين عندما يصف الدير أو المساجد وبعض الأقبية والمنازل الإسلامية ، وفي تلك الحالة تتم معاينة الأثاث و الأفرشة و الصّور المعلقة على الحائط ، أمّا السكان فإنهم ينتقلون في تلك الأطر المكانية وفق نظام آسن ثقيل.

إنّ البحر هو المكان الوحيد الذي يربط بين ضفة حضارتين مختلفتين ، إنه رمز الإتحاد والتواصل ، أولئك العرب يطمحون دائما إلى الانتقال عبره حتى يصلوا الضفة الأخرى وهناك تنفتح المجالات المغلقة ويصير كل محرم مباح ، إنّ الحرام هنا حلال هناك ، لكن لامارتين

يتيح لنا عبر موصوفاته تجوالا في بعض الأماكن التي تنتشر فيها الملاهي والخمّارات ، هي في قلب القدس بالقرب من الأماكن المقدّسة خير يرقد الأنبياء ، وتوجد كنيسة المهد.

هذه المتناقضات إذن تسهم في تجليتها الأمكنة والوصف يغدو حينئذ سبيلا إلى تعرية الذّات وإبراز سوءاتها ومكامنها ، اللغة التي تمت بها هذه الأوصاف لغة راقية في كل الحالات، لأن لامارتين لم يشأ أن يهبط في أي لحظة إلى مستوى السوقة أو العوّام حتى وإن كان ذلك مطلبا مهما في نظر القرّاء .

2- الزمن :

أ- الزمن في العمل السردي:

إذا كان المكان هو مادة تخييلية فإن الزمان عمدة القص وعصب نظمه ولا خلاف بين النقاد في أن القصة في زماني أساسا " وقد يعترض بالقول إن التصوير الروائي ذو مكُونين ، مكوّن سردي عماده الزمن ومكوّن وصفي عماده المكان" [(1)]

والزمان في مفهومه العام هو المادة المعنوية المجرّدة التي تتشكل منها الحياة " فهو حيّز كل فعل ومجال كل تغيّر وحركة وهو بالنسبة للإبداع الأدبي عامة والقصص خاصة تحضير للجو النفسي والاجتماعي والاديولوجي ... " [(2)]

ولعلنا لا نستطيع إدراك مفهوم الزمان الأدبي دون أن نعرّج على مفاهيمه الفلسفية المختلفة والمتنوعة .

كان الزمان حتى القرون الوسطى يتصور على أنه سلسلة متقطعة من اللحظات وقد أورد " بولي " هذا التصور القروصطي فقال ملخصا له " الله هو الذي يحرّك الأشياء والذوات ويقرر لها تحولاتها ،إنما وجودها سلسلة من اللحظات لا تتم الواحدة منها إلاّ إذا ما أرادها الله أن تكون التغيرات في الأشياء التي لا تحدث بالتالي وفقا لطبيعة هذه الأشياء، بل تحدث لأن الله يشاؤها .[(3)] .ونخلص من ذلك إلى ثلاثة معان هامة : أولها أن الزمان له اتجاه مسبق إذ لا

---

(1) عيد الوهاب الرقيق وهند بن صالح : أدبية الرحلة في رسالة الغفران (مقال ضمن مجلة النص والناص يصدرها قسم اللغة العربية بجامعة جيجل عدد 4 و 54 ص 205-254.

(2) أحمد طالب: مفهوم الزمان ودلالاته في الفلسفة والأدب – بين النص والتطبيق – دار الغرب للنشر والتوزيع ط 2004 ص 9 .

(3) عبد الصمد زيد : مفهوم الزمن ودلالاته دار العربية للكتاب . ليبيا 1988.ص 14 .

يؤدي إلى الله وثانيها أن المستقبل هبة من الله إذ هو الذي يسمح بوجوده أو عدمه . وثالثها أن الذات البشرية ليست مستقلة عن الأشياء . بل أنها لتنتظم ضمن رباط واحد هو الله الحاضر فيها. الفاعل لحركتها .

فالزمان إذن مفهوم فلسفي قبل كل شيء ، بل أنه لمن أدق المفاهيم الفلسفية وأكثرها إشكالا وأدعاها إلى الاحتياط والاحتراز،وهذا ما جعل الفكر البشري يؤصل له مند القديم. في محاولة منه لإدراك ماهيته واستكناه حقيقته غير أنه ظل عاجزا عن وضع مفهوم محدد له على اعتبار أنه " عنصر تجريدي مقرون بعوالم الميثافيزيقا ...، فقضايا مثل القيم والحدوث / ومآل الوجود .والصيرورة والأزلية ، وغيرها من القضايا الفلسفية هي في حقيقة أمرها تحاول أن تخوض في الظاهرة الزمانية ، بوصفها ظاهرة أكبر الظواهر الوجودية " [(1)] .

فلفظة الزماني منسوبة إلى الزمان أو الموجود في الزمان .وهو مضاد للأبدي لأن للزماني بدل المتغير والأبدي يدل على الثابت " ونسبة الزمان إلى الأبدي كنسبة المتناهي إلى اللامتناهي وفرّقوا بين الزماني والأبدي أيضا بقولهم . إنّ الزماني متعلق بالحياة المادية في حين أن الأبدي متعلق بالحياة الروحية ومنه قوله السلطة الزمانية والسلطة الروحية والزمانية صفة ما كان زمانيا " [(2)].

وهي عند الوجوديين حركة تدفع المستقبل إلى الماضي حين توصله إلى الموت " أي إلى لحظة لا مستقبل بعدها ، ويطلق اللفظ اللازماني على ما كان ثابتا خارج الزمان لا تغيره صروف الدهر ولا تقلبات الحدثان " [(3)] .

إن الزمان إذن مقولة من مقولات الفكر عند الفلاسفة وهو مقولة من مقولات الوجود عند البعض الآخر " فقد اختلف العلماء والفلاسفة في تحديد مفهوم الزمان اختلافا شديدا حيث رأى فريقا منهم أن لا وجود للزمان أما الفريق الثاني فقد أعتبر وجود الزمان وجودا موضوعيا يمكن ضبطه وقياسه في حين اعتبره فريق ثالث وجودا نفسيا بفلت من الضبط

---

(1) جميل صليبة : المعجم الفلسفي . دار الكتاب اللبناني .ط1994 ج1، ص 638.
(2) المرجع نفسه ، الجزء نفسه ، الصفحة نفسها .
(3) محمد السويرتي .النقد البنيوي ص 9.

والقياس والزمن بالمفهوم الثالث هو الزمن الأدبي " [1] . عموما والروائي خصوصا وهو من الناحية اللغوية يدل على " قليل الوقت وكثيرة وجمعه أزمان وأزمنة " [2].

أما من الناحية الفلسفية فهو امتداد غير مرئي " يحس به الإنسان دون أن يمر عبر حواسه ، يحاربه أو يهرب منه ، يرهبه دون أن يعرفه ، أنه فعل مشوب بالغموض " [3]

ولعل أول فكرة ظهرت حول مفهوم الزمان هي مبدأ الحركة والتغير والتطور لدى الفلاسفة الطبيعيين أمثال " هيرقليطس " و " برمنيدس " وغيرهما من الذين ربطوا الوجود بالزمان ، بعد أن كان الوجود في فكرهم مرتبطا بالمكان فقط ، والتغير في نظرهم يشمل الوجود ومواده التي تدركها الحواس ، وهو الجانب الطبيعي الذي انتقل منه " أفلاطون " إلى الجانب الميثافيزيقي تبعا لعالم المثل الذي يعتبره كنه الوجود الحقيقي وجوهره الأزلي الثابت الذي ليس له ماض ولا مستقبل لأنه أبدي حاضر لا يمكن حصره لأن الكون في نظره ما هو إلا صورة من المثل باعتبار أنه " إذا كان العقل هو المسير فإنه يسير بكل شيء إلى الصورة

المثلى ويضع كل شيء أحسن موضع وزعمت أن من الناس من يرغب في استكشاف علة تولد أي شيء وزواله أو وجوده ، فعليه أن يرى كيف تكون الصورة المثلى بذلك الشيء من حيث وجوده وسعيه وعمله لذلك كان لزاما على المرء أن لا يضع نصب عينه إلا الحالة المثلى بالنسبة إلى نفسه وإلى الناس " [4]

لقد اعتبر " أفلاطون " الزمان دود الكيان بنخر معدن الأشياء فيحيلها إلى الفساد والفناء ويبعث بالعالم المنظور فيجعله خدعة وأوهاما وخيالات وما التخلص منه إلا من الحس والارتقاء بالعقل إلى العالم المعقول – عالم القرار – عالم المثل – عالم لا زمان فيه ولا تحول ولا خدعة – وما الجدلية الأفلاطونية إلا محاولة لكشف هذه الخدعة والتغلب عليها لإدراك الجوهر الأصل الحقيقة المماثلة المطهرة من داء الزمان " [5]

---

(1) عبد القادر الرازي : مختار الصحاح ، مادة الزمن .
(2) ملاس مختار : النسيج الزمني في الرواية – رجال في الشمس لغسان الكنفاني – ص 254.
(3) أفلاطون : محاورات أفلاطون . عرّبها عن الإنكليزية زكي نجيب محمود .مطبعة لجنة التأليف والترجمة . القاهرة .1966 ص 23.
(4) ملاس مختار ، سبق ذكره ص 255.
(5) عبد الصمد زايد ، مفهوم الزمن ودلالاته ص 15.

جعل أفلاطون من الزمان إذن شكل من أشكال الواقع الإنساني المتصل بالنقص والفساد والدونية ومن تم فإنه لم يجعل الأشياء العالم المثالي خاضعة له وهكذا يكون الزمان في النظرية الأفلاطونية فعل حركة وتحول يشوه الأشياء ويعبث بها ويغتر من ملامحها ويفقدها هويتها .

إن هذا الطابع الحركي للحدث الزمني رغم ما آثاره عند الفلاسفة والمنظرين من إشكالات جعلهم يقرون بالجانب السلبي لهذه العملية في حياة الإنسان فإن ذلك لم يمنع البعض الآخر من تأكيد على المظهر الحيوي لحركية الزمن ، ومن بين هؤلاء الفيلسوف الفرنسي " بيرغسون " الذي يرى في فعل الحركة والتحول فعلا إيجابيا ذلك أن الأشياء " لا توجد على أنها انتهت وكملت ، بل هي في طور تحول مستمر وهذا ما من شأنه أن يساعد الفكر على التغير ، ذلك أن علاقة الفكر بالوجود هي علاقة جدلية فإذا تغير الوجود إنطبع هذا التغير على الفكر والعكس صحيح ومن تم فإذا كان الوجود ساكنا فإن الفكر يجمد كذلك لذلك يؤكد " بيرغسون " أن لا فكر إلا ما اتصل بالأشياء كعناصر متحولة ففي هذا التحول تخترع الأشياء نفسها باستمرار " [1]

يحيلنا قول " برغسون " إلى مساحة أخرى هي الأكثر خصبا وتنوعا النسبة للظاهرة الزمنية وتتمل في علاقة الفكر بالزمان على اعتبار أن العملية التفكيرية هي التي من شأنها أن تأسس كينونة الأشياء ومن ثم فإن هذه الأخيرة- الأشياء - لا يمكن أن تحقق وجودا إلى عبر العملية التفكيرية وهذا ما أشار إليه " رينيه ديكارت " حينما أكد أن عملية التفكير تعتمد مبدأين :" أولاهما أن الفكر لا يتم إلى ضمن حدود أولى هي : المطلق والأدب وثانيهما أن يكون موضوع تفكير شيئا مخلوقا ابتدأ في لحظة ما ، وبذلك يبرز الزمن التاريخي أي زمن الأشياء إلى أنه لا يظهر إلى كلما تمثلته عملية التفكير أي أنه لا استمرار له لأن لحظة التفكير لا تدوم إلى على قدر ما يدوم التفكير " [2] .

يمثل الزمان على العموم زاوية نظر جديدة في فلسفة " ديكارت " المتسمة بالشمولية والدقة في آن واحد إذ عمد إلى الربط بين عملية التفكير وعنصر الزمان من خلال منطلقين:

---

(1) المرجع السابق ص 15.

(2) المرجع نفسه ص 14.

الأول هو تحقيق الفكر من خلال الأزل المطلق والثاني هو كون التفكير شيئا موجودا له بداية ونهاية واستمرارهم مرهون باستمرار عملية التفكير ذاتها ولعل هذا التصور القاضي بأن لا تمادي للأشياء إلا بقدر تمادي التفكير فيها ، يبطل في حدود مفهوم الحاضر ، المتقطع المركب من لحظات ولكنه لا يقر مبدأ الاستمرار نهائيا ، على أن ذلك يمنع من الانتباه إلى ما فيه من فضل الاعتراف للإنسان باستقلاله عن الأشياء حتى يقوى على إدراكها والفعل فيه بواسطة التفكير " [(1)].

وخلاصة القول أن أهمية البحث في عامل آلية الزمان هي الفكرة المميزة لهذا العصر ، فأهم الحركات العلمية والفكرية والفلسفية والفنية اتخذت من هذه الفكرة محورا لها إذ أصبح الزمان هو موضوع نظريات وبحوث كثيرة والقاسم المشترك الذي يجمع بين ممثلي حضارة هذا القرن [(2)].

ب- بنية الزمان السردي:

إذا كان الزمان لا يعبر عن حقيقة ما فإنه فيما يرى " بارت " خيال من صنع القاص، غير موجود إلا وظيفيا ، وبصفته عنصرا في النظام سيميائي " [(3)] يتحقق بوصفه صورا في النص القصصي ، مما يعني أن الفضاء الزماني قد يكون مجرد توهم لمرور حالا أو مجموعة أحوال.

تطرح مشكلة الزمن في الأجناس السردية للتناقض القائم بين زمنية الحكاية (الجنس السردي) ، وزمنية الوحدة الكلامية ، وفي الغالب ما يكون زمن الوحدة الكلامية زمنا أحادي الخط ، بينما يكون زمن الحكاية متعدد الأبعاد.

لذا ستنطلق في تناولنا لعنصر الزمن من إسهامات الشكلانيين الروس ، وعلى ما قدمه كل من توماتشفسكي وتودوروف وجينيت ، وكذلك من بعض تنظيرات التي مارسها "ميشال بوتور" حول الزمن في العمل الروائي.

---

(1) المرجع السابق ص 14.

(2) ينظر سمير الحاج شاهين : لحظة الأبدية – دراسة الزمان في أدب القرن العشرين – المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت .لبنان ط 1 .1980 ص 64.

(3) أحمد طالب : مفهوم الزمان ودلالته ص 28.

انطلق الشكلانيون الروس في أعمالهم حول العمل الحكائي من جهود توماتسفشكي الذي ميز بين المتن الحكائي والمتن الحكائي في إشارة منه إلى مسؤولية الزمن في تحديد ذلك حيث يمثل المتن الحكائي " مجموعة الأحداث المتصلة فيما بينها ، والتي يقع إخبارنا بها خلال العمل " (1)

في حين يتألف المبنى الحكائي " من نفس الأحداث يبدأ أنه يراعي نظام ظهورها في العمل كما يراعي ما يتبعها م معلومات تعيينها لنا " (2)

كما أشار إلا أهمية تحليل الزمن وإبراز الأدوار التي يقوم بها في العمل الحكائي ، مميزا بين المتن الحكائي ، وزمن الحكي ، " فالأول هو الذي يفترض أن الأحداث المعروضة قد وقعت فيه ، فهو الزمن الطبيعي الذي جرت فيه الأحداث أما زمن الحكي " فهو الوقت الضروري لقراءة العمل أو مدة عرضه " (3) وهو الذي يتحكم فيه السارد من اجل وصف مجموع الأحداث وفق نظام معين ، وفيه يتحدد مدى تمكن الكاتب فنيا من صقل نصه السردي .

وما يمكن أن ننوه إليه أن المتن الحكائي ، والمبنى الحكائى هما من المصطلحات النقدية التي اقترنت بأعمال الشكلانيين الروس وتحليلاته البنية السردية والحكائية خلال الربع الأول من هذا القرن ، وقد استخدم هذا المصطلح على شكل ثنائية ضدية .من قبل " كل من بروب وسكلوفسكي وإيخن باوم وتوماتشفسكي ، وكان بروب قد استخدم هذين المصطلحين لفحص وتحليل نماذج من الحكاية الخرافية " (4) .

أما " تودوروف " فيرى أن الزمن الحكي " يتضمن نوعين من الزمن، زمن القصة ، وزمن الخطاب " يكون الأول متعدد الأبعاد ، إذ يمكن للأحداث الكثيرة أن تجري في أن واحد لكن زمن الخطاب ملزم فأن يرتبها ترتيبا متتاليا بأنني للواحد منها بعد الآخر ، لأغراض

---

(1) سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، ط3 1965. ص 287
(2) المرجع نفسه ص 287.
(3) المرجع نفسه ص نفسها.
(4) فاضل ثامر : اللغة الثانية – في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي والعربي – المركز الثقافي والعربي الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 1994 ، ص 184.

جمالية يراها الكاتب ، فالأول : من واقعي ، وأما الثاني فهو من فني ، وهذا تدخل الذي يقوم به الكاتب على مستوى النص السردي من تحريك في زمن القصة هو الذي يستدعي ايقاف التتالي الطبيعي للأحداث في القصة " [1] .

إن المقصود هنا بكلام تودوروف هو تلك إمكانية التي تتيح للمؤلف ، باستعمال تعريف الزمني وأن يتصرف لترتيب الأحداث تبعا للغايات الفنية التي يقتضيها العمل الروائي ، وليس بناءا على تمنيه عليه مقاصد القصة .

كما يمكن الإشارة إلى جهود " جيرارجينيت " في تمييزه هو الآخر بين نمطين من الزمن ، سم الأول الزمن القصة الذي يمثل زمن الأحداث ، ويعتبر كزمن الكتابة الحكائية ، وزمن المروي له إذا وجد في النص ، وزمن الخطاب الذي يمثل بنية تلك الأخيرة في العمل الأدبي ، أو ما أطلق عليه " زمن المدلولات النصية التي تتابع خطيا في الخطاب " [2]

ويقرر جينيت أن لا سرد بدون زمن فمن المتعذر أن نعتثر على سرد خال من الزمن فيمكننا أن نروى قصة دون نسعى إلى تحديد المكان الذي تدور فيه الأحداث بينما يكاد يكون مستحيلا إهمال العنصر الزمني الذي ينظم عملية السرد ، ومن خلال ما تقدم ذكره عن مختلف تقسيمات الزمن عند كل من توماتشفسكي ، وتودوروف و جينيت اللذين تبنو تقسيم الثنائي ، نجد من يقسم الزمن تقسيما ثلاثيا ، كما وضع ذلك " ميشال بوتور" حين ميز (زمن المغامرة وهو زمن القصة وزمن الكتابة ، وزمن القراءة). [3]

لعل إشكالية الإبداع القصصي عامة ، هي إشكالية زمنية في الجوهر ، هذا الأخير الذي يسمح بالانتقال من الخطاب إلى التخيل ، إذ يعد الزمان شريانا نابضا من شرايين القصة ، فهو الذي يعطي لسرد صفة القصة ، بفضل العلاقة الجوهرية القائمة بينهما والمبنية أساسا على نظام دقيق يومئ بالتتابع الزمني للوحدات الحكائية إذ يتمتع بأهمية كبيرة في تحضير الجو النفسي العام لاستعاب ظروف القصة وأبعاد شخصياتها.

---

(1) حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1990 ص 115.

(2) ينظر جيرار جينات : خطاب الحكاية ، ترجمة محمد معتصم ، عبد الجليل الأزدي ، عمر الحلي ، منشورات الإختلاف ، الجزائر ، 1998.ص 45.

(3) القراءة : ميشال بوتور ، بحوث في الرواية الجديدة ، ترجمة فريد أنطونيوس ، منشورات رويدات ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1971 ص 101.

وقد لا يكتسب عنصر الزمان قيمته الجمالية إلى حين يدخل حيز التطبيق بوساطة ممارسة الفنان العملية ، فالفنان والأديب كلاها يواجه الزمن حين يريدان التعبير عنه ، أو حين يعمدان إلى التعبير عن الأشياء التي هي جزء منه ، لذا سندرس العلاقات بين زمن القصة وزمن الحكاية أو ما يطلق عليه " زمن التخيل ، أو الزمن المشخص " [1] وهذا طبقا لتحديدات أساسية ثلاث هي : الترتيب الزمني، التواتر، المدة.

جـ - الزمن في رحلة لامارتين:

الزمان في مفهومه العام هو ذلك الرابط الذي يشد الأحداث إلى بعضها يرتبها وينسق بينها ، في حالة رحلة ، إلى الشرق للامارتين يتأسس العمل على حكاية الأحداث وفق مسار مضبوط ، وتبعا للطريقة التي تفرضها سيرورة الأحداث من البداية إلى النهاية ، ومن الشاطئ الفرنسي ذهابا إلى الشاطئ ذاته رجوعا .

يتوقف الزمن حين يتعلق الأمر برواية الأحداث التي تجري عند كل نقطة أو استراحة ، ومع أن الانطباع هو الأساس الذي نسعى للحصول عليه ، إلا أن الصور المكانية والشخصيات المتحركة ولباسها وسكناتها ومسكنها كلها أمور تهمنا ، تستوقفنا وتسترعي انتباهنا.

إن الزمن في هذه المنظومة السردية واقعي في معظمه مدعم بالدليل العقلي الذي يتأسس على ذكر التواريخ لترسيم الواقع ترسيما دقيقا.

الزمن ينقسم إلى زمن استذكاري يروي الأحداث كما جرت دون زيادة ، لكنه ملفوف بغلالة نفسية رقيقة ، هيفاء ، تسجلها أنامل كاتب ، شاعر رومانسي ، حركته ابنته مريضة متعبة تابعها وانتقل معها ، فكان يموت معها ، ثم جاءت أزمنة أخرى في الجبال وفي السهول ، في الرمال وفي التلال ، حول الآبار وفي القفار ، حيث يسكن الناس ولا يشعرون بمرور الوقت ، الموت وحده كفيل بوقف الزمان ، كما توقف زمن الحياة عند ابنته.

بعض الشخصيات ترتدي ألبسة تجعلها تنتمي إلى عصور أخرى . وقد تعلق بصر لامارتين بهذه الشخصيات فوصف هندامها ولباسها وكان وصفه يوحي بأن رؤيته مستنبطة ومبنية على أساس حضاري ، زمنان متداخلان ، زمن القدس والمشرق بكل عتاقته وقدمه

(1) تودوروف : مفاهيم سردية ، ترجمة عبد الرحمن مزيان منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 2005. ص 110.

ومميزاته الشكلية ، بناياته ، منازله ، شوارعه ، قصوره ، شخوصه والألبسة هي دلالات تعبر عن حاضر شعب ينظر إليه لامارتين بعين الإنسان الذي جاء من المستقبل . زمن الماضي يتجسد في البلاد التي يطوف بها الكاتب ، وهي بمثابة استغراق في هذه الدنيا التي يظن من يسمع أو يقرأ كلامه أنها أسطورية الزمن ، بعيدة غائرة في التاريخ.

أما زمن الكاتب فهو زمن محفوف بالتطور والمدن والتحضر . فرنسا غير القدس وهي ليست الأردن ولا سوريا أو حتى لبنان.

الزمن إذن ليس متفرعا متشظيا، إنه يسير من الماضي على الحاضر ،لأنه يتعلق بسرد الذكريات ، والأحداث التي مرت على لامارتين منذ مغادرة فرنسا حتى العودة إليها ، ومع ذلك فقد ساهمت الحكايات والسرد في إعطائنا صورة جميلة عن الشرق وعن متاهاته على الرغم من الصعوبات والمخاطر التي أحدقت بهذه الرحلة.

حين نفتح كتاب لامارتين حول الرحلة إلى المشرق نشعر أننا أمام نوع من المذكرات الشخصية التي يستحضر فيها الكاتب جملة من الأحداث التي مرت عليه خلال حياته ، لكن هذا الشعور سرعان ما يتغير لأننا نجد أنفسنا في مواجهة أشكال من الانطباعات التي ترسخت لدى هذا الشاعر ، المفكر ، بعد معاينة مجموعة من البلدان من المشرق العربي ، الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين خاصة .

يتشكل موقف لامارتين في هذه الرحلات تدريجيا فهو بعود إلى زمن الحملة النابليونية إلى الأحداث التي تلاحقت بعد ذلك إلى مرض ابنته وإلا العودة في النهاية.

الزمن عنصر مهم في كل الأعمال السردية ، وهو الروح التي تسري في المكان وفي الشخصيات وفي اللغة، يربط الأشلاء ويجمع العصور ويؤسس للعلاقات بين الماضي والحاضر إلى المستقبل .

نحن نعلم أن زمن الذكريات والإستذكارات هو زمن الماضي خاصة ، ولكنه قد يتحول إلى حلم وأمل ، كان لامارتين يحلم بشفاء ابنته وبرؤية القدس التي لطالما هتف قلبه

لسماع اسمها ، كل شيء صار معلقا على زمن واحد ووحيد ، زمن الوقوف في حضرة كنسية المهد والارتشاف من ماء التعميد ، والمرور بين السراديب التي كانت تشهد لأرواح وغدو الأنبياء والرسل والآباء المكرمين ، كم كانت الأحلام مفيدة للامارتين الذي فجع في ابنته ، وذاق مرارة الفراق .

وتبعا لكل ما سبق سنبدأ الإشارة إلى تلك اللفتة التي أوردها لامارتين في البداية :

" مذكرات، انطباعات ، ذكريات ومناظر خلال الرحلة إلى المشرق .1832-1833 أو سجل رحالة [1].

تأليف ألفونس دي لامارتين "

فهذا الكلام يعني بشكل مباشر أن لامارتين كان ينوي أن يكتب كل هذا ، المذكرات ، بكل ما تعنيه من تعداد للأحداث التي مرَت عليه ، والانطباعات، بكل ثقلها الشعوري أو الأثر الذي تركته الرحلة في نفسية الكاتب ، والذكريات أيضا تحمل شحنة عاطفية فهي تفيد الحنينية والتمسك ،وبعد ذلك يستعمل لامارتين الزمن الماضي المقرون بالتحديد المكاني يقول:

" تلك الدراسات التي قمت بها هناك حول الديانات والتاريخ والعادات والتقاليد ، وحول مراحل الإنسانية ، كلها لم تذهب سدى "[2] .

لكن هذا الزمن الماضي الذي يدل على استمرارية الحالة ، حالة المشرق ، مهد الحضارات والإنسانية والتاريخ لا يتوقف ولن يتوقف : الدراسات تفسح المجال أمام العقل وتوسع أفقه إنها تنحت قناعات وتوجهها ، وتهذبها وتصقلها ، لا شيء يفعل ذلك مثل الأسفار [3] .

(1) Lamartine voyage p01
(2) IBid p 01.
(3) IBid p 01

كيف يمكن للزمن ان يتوقف ، تحدث لامارتين كثيرا عن الزمن بوصفه عنصرا خالدا ، لا يفنى الإنسان وحده هو الذي يفنى أما الزمان فسرمديَ خالد ، إنه يمضي ونحن في جريه نفنى .

إن أهم ما يمكن ملاحظته في هذه الأسفار هو أنها موثقة وفق مسار زمني محدد متتابع " 21 ،23،22، ماي 1833. "[1]

ويقول أيضا مستعملا شكلا من التسريع الزمني : " وفجأة ، عندما غادرنا ، تغير الجو، إلى أهوال الأمواج ومخاطر البحار " [2]

وحين ينتقل إلى الوصف يتعطل السرد ويركد كما تركد مياه فتسمح لأصحابه بالتمتع برؤية الجمال والتسبيح للخالق الذي أبدع في تشكيل طبيعته : " شعاع الشمس الذي يدفيء الرمل الذي نجلس فوقه وتلك الحيات تجري بين الصخور ، والحشرات التي تحوم حولك والعصفور القلق يقترب منك " [3]

كل هذا الوصف يحمل طبيعة التعليق ويذكرك بأن الطبيعة لا تخلو من الأوقات الجميلة وبعد كل عاصفة هوجاء تأتي الاستراحة ، تماما كما استراحة المحارب.

إن الزمن في هذه الأسفار ينوء بالحمولة ، قال لامارتين تحدث عن أوروبا وجوَها وعواصفها ويستحضر ضمن المستحضر الأحداث السياسية هناك ، وفي المشرق وإيطاليا والخلجان يشير إلى الرحلات القديمة التي خلدتها المواقع المكتشفة ، كم هي جميلة هذه الذكريات ولكن هذا الجمال ينقطع خيطه بمجرد رؤية المناظر الإقطاعية ، إقطاعية الحاضر ورجال الدين البائسون الذين يسعون إلى إعادة لملمة المتناقضات ، إسلامي ، يهودي ، مسيحي وأمور أخرى.

---

(1) IBid p 01
(2) IBid p 01
(3) IBid p 01

كأننا نعيش أزمنة في زمن واحد ، زمن أوروبا ليس هو الزمن الذي يسري على فلسطين ، وزمن لبنان زمن آخر دون شك وهكذا.

إن الإحساس لدى لامارتين ندي في رائحة الزمن وعبق التاريخ وصيرورة الأمل وتحدي الوجودية.

الشخصية:

إن المصطلح الذي نستعمله نحن مقابلا للمصطلح الغربي " personnage " وهو " الشخصية " وذلك على أساس المنطق الدلالي للغة العربية الشائعة بين الناس يقتضي أن يكون الشخص هو الفرد المسجل في البلدية والذي له حالة مدنية ، والذي يولد فعلا ويموت حقا ، بينما إطلاق الشخصية لا يخلو من عمومية المعنى ، في اللغة العربية ، زئبقي لدلالة فارتأينا تمحيقه لدى الحديث عن السرديات ، للعنصر الأدبي الذي يظهر في العمل السردي ضمن عطاءات اللغة التي يغدوها الخيال للنهوض بالحدث ، وللتكفل بدور الصراع داخل هذه اللعبة السرية العجيبة (1)

لقد ذهب البحث إلى البرهنة على أن الشخصية افتراض خيالي من ابتداع المبدع ، وليس لها أي مقابل واقعي ، ولا أي تجسيد مادي محسوس لها وجود من لحم ودم (2) .

وتنهض الرواية التقليدية على طائفة من الخصائص والتقنيات والعناصر والمشكلات : كالشخص والزمان والحيز (المكان) والحدث واللغة وتتميز البنية السردية في الرواية التقليدية بالتزام المنطق القائم على تعليل الأشياء ، وربط بعضها ببعض ، إذ لا يمكن أن تقع فيها حدث ما ، إلا ويجب أن تربط بعلة ما أو بحركة ما ، أو بعاطفة ما ، أو بهوس ما ، أو بمبر ما ، أو بدافع ما ... فالشخصية تخسر لإنجاز الحدث الذي وكل الكاتب إليها إنجازه ، وهي تخضع إلى ذلك لصرامة الكاتب وتقنيات إجراءاته وتصوراته وأيديولوجيته : أي فلسفته في الحياة .

(1) : عبد المالك مرتاض : سبق ذكره ص 85 .

(2) إدريس قصوري " أسلوبية الرواية – مقارنة أسلوبية الرواية زقاق المدن لنجيب محفوظ عالم الكتب الحدث إربد الأردن ط1 2008 ص 315.

(3) Le personnage du romain , in encyclopaldia universalis , t xxl , p35.

وتعامل الشخصية في الرواية التقليدية على أساس أنها كائن حي له وجود فيزيقي ، فتوصف ملامحها وقامتها وصوتها وملابسها وسحنتها وسنها وأهواؤها وهواجسها ، وآمالها وآلامها وسعادتها وشقاؤها ، ذلك بأن الشخصية كانت تلعب الدور الأكبر في أي عمل روائي يكتبه كاتب رواية تقليدي (بالزاك ، إميل زولا ، نجيب محفوظ) .

بينما الروائيون الجدد لم يفتأوا ينادون بضرورة التضئيل من شأن الشخصية ، والتقليص من دورها عبر النص الروائي إلى أن وجدنا كافكا أحد المبشرين بجنس روائي جديد يجتزئ روايته محاكمة (le procés) بإطلاق المجردة رقم على شخصيته [(1)]

يبدو أن هناك من لا يبرح يمنح بشخصيته الروائية أهمية الكبرى ويبوؤها منزلة العظمى في حياة الاجتماعية والفكرية والجمالية معا ذلك لأن الشخصية الروائية بحكم قدرتها على حمل الآخرين على ترقية الطرف من أنفسهم كان مجهولا إلى ذلك الحين فإنها تكشف لكل واحد من الناس مظهرا من كينونته التي ما كانت لتكشف فيه لولا الاتصال الذي حدث عبر ذلك الوضع [(2)].

أنواع الشخصية :

كان النقد يصنف الشخصيات بحسب أطوارها عبر العمل الروائي فإذا هناك ضروب من الشخصيات بحيث نصادق الشخصية المركزية التي تصاديها الشخصية الثانوية التي تصاديها الشخصية الخالية من الإعتبار (perssonage de comparse) كما نصادق الشخصية المدورة والشخصية المسطحة كما نصادق الشخصية الإيجابية والسلبية كما نصادق الشخصية الثابتة والشخصية النامية وفيما يلي سنتعرض لبعض هذه الأنواع :

الشخصية المدورة والشخصية المسطحة :

يبدو أن أول من اصطنع هذا المصطلح هو الروائي والناقض الإنكليزي فوستر (EM .FOSTER) في كتابه (aspect of the novel) وقد ترجم هذا المصطلح ميشال زيراف إلى الفرنسية تحت عبارة personnage (ronds et personnages plats) [(3)]

(1) Le personnage du romain , in encyclopaldia universalis , t xvi , p35.
(2) :Id , p 150-151.
(3) Michel .Zerraffa le roman , inhirature .et genne littéraires.

وذميل دخى إلى مصطلح ميشال وهو " الشخصية المدورة فإذا ما قارناها بالادب العربي نجدها تقترب منه كثيرا فالجاحظ حين كتب رسالة يتحدث فيها عن شخصية نصفها حقيقي والآخر خيالي وهي (رسالة التربيع والتدوير) في حين فوستر شرحها على أساس الشخصية المكثفة"

ويشرح" ثودوروف" و"ديكرو"نقلا عن "فوستر" ، الميز بين دلالة كل مصطلح فيذهب إلى أن " المعيار الذي بواسطته نحكم بأن شخصية ما مدورة (ونحن قد بينا عليه اختيارنا التدوير عوضا عن التكثيف) يكمن في موقف هذه الشخصية فأما إن فاجأتنا مقنعة إيانا فهي مدورة ، وأما إن لم تفاجئنا فهي مسطحة " [1].

الشخصية المدورة متغيرة الأحوال، لا يعرف المتلقي ما سيؤول إليه أمرها ، لأنها متبدلة الأطوار فعنصر المفاجأة لا يكفي لتحديد نوع الشخصية ، ولكن غناء الحركة التي تكون عليها داخل العمل السردي وقدرتها العالية على تقبل العلاقات مع الشخصيات الأخرى والتأثير فيها ، فإذا هي تملأ الحياة بوجودها ، وإذا هي لا تستبعد أي بعيد ولا تستصعب أي صعب ولا تستمر أي مر إنها الشخصية المغامرة ، الشجاعة المعقدة والتي تكره وتحب ، تؤمن وتكفر وتؤثر في سواها تأثيرا واسعا.

الشخصية المسطحة :

هي تلك الشخصية البسيطة التي تمضي على حال لا تكاد تتغير ولا تتبدل في عواطفها ومواقفها وأطوار حياتها بعامة ومثل هذا التعريف متفق عليه في النقد العالمي شرقيه وغربيه ولكن مصطلح الروائي والناقد "فوستر" وارد تحت طائفة من المصطلحات الأخرى ، فالشخصية المدورة مثلا هي معادل مفهوماتي للشخصية النامية بينما الشخصية المسطحة هي مرادف للشخصية الثابتة على حين أن الشخصية الإيجابية ليست إلا الشخصية المدورة ذلك لكونها تستطيع التأثير والتأثر على غرار الشخصية السلبية يعرفها اسمها ويحددها مصطلحها فهي التي لا تستطيع أن تؤثر ولا تستطيع أن تتأثر ،

---

(1) Ducrot et todorov op . cit. p289.

بيد أن الشخصيات المسطحة لا يمكن أن ترد في العمل الروائي من دون غناء بل كثيرا ما تتوهج الشخصيات المدورة بفضل الشخصيات المسطحة [1].

الشخصية في رحلة لامارتين :

أ/ الشخصية النسائية :

تنقسم الشخصيات في أسفار " لامارتين " حسب الحضارة التي تنتمي إليها الحضارة العربية قد تكون إسلامية أو مسيحية أو يهودية والواقع أو وصفه مؤسس حول المعطيات التاريخية. الإنسان الأوروبي متقدم متطور. يختلف في أنماط معيشته وفي ثقافته عن الإنسان العربي أما النساء فقد ورد ذكرهن على أساس جنسي المرأة تستعمل مثل العبيد أو كالأطفال تمتليء الخيام بالنساء والأطفال وبالعبيد كلهم يحملون قلالا فيها أزهار قطفنها لوضعها على الأضرحة [2]

أما الصورة الأخرى للنساء فهي تتحدث عن رؤية لامارتين لهذين الحين والآخر. حين يسترق النظر من الشرفات. كن يرتدين عباءات ويخفين فيها أنفسهن ويحتجبن خلفها كأنهن يخشين بطش الرجال ، المرأة وسيلة يستعملها الحاكم أربعة أو خمسة أو حتى أكثر من ذلك الرجال وكأنهم يمضون أوقاتهم بالإكثار من النساء وشيوخ القبيلة يغدقون على الأولاد كما يغدقون على تلك النسوة في الجهة المقابلة لدى المسيحيين تأخذ المرأة جزءا من حريتها تخرج تغدو وتجيء بين الرجال تقوم بعض الأمور التي لا يسمح بها لغيرها عند العرب.

تمشي النسوة بأرجل حافية تدل على خشونة الطباع وسطوة الزمن لدرجة أن أرجلهن تترك على السلالم آثارا ثم إن تلك الآثار تنمحي لتذهب معها تلك العلامات وتأتي علامات أخرى تحيل كلها إلى حالة كانت تميز المرأة في القدس. إن التكرار يؤدي إلى حدوث تلك الآثار لكنها أي تلك الآثار تدل أيضا على أن ذلك المسلك هو المسلك الوحيد الذي تم عليه النساء نشعر أن الهدف الأخير الأساسي هو إبراز الموقف من وضعية المرأة في الوطن العربي وهي إنها لا يسمح لها بالتجول في كل مكان ولا بالنظر من المنافذ .

---

(1) عبد المالك مرتاض: سبق ذكره ص ص 101-102.

(2) Lamartine voyage en orient p 267.

أما اللباس فإنه يخفي كل شيء يلبس الرجال وتلبس النسوة العباءات لا شيء يفرق بينها إلا الصوت.

استعمل لامارتين طريقة غريبة في وصف المرأة يقول " هؤلاء النسوة عاريات الأكتاف والأرجل، كن يرتدين لباسا من القطن الزرق يحطن وسطهن بقطعة من القماش يستعمل مثل الحزام يزين أرجلهن مجموعة من الأساور المصنوعة من الذهب والفضة ، وشعرهن المجعد مسترسل على أكتافهن يزيدهن جمالا وعلى الرغم من أن الإناث البربريات تحاولن الإبانة عن أغراض معينة بالنظر، إلا أن تلك الجرأة لا تكتمل [1] .

المرأة بالنسبة للامارتين متوحشة في سوريا كما في فلسطين وفي باقي البلدان وقد تحدث عن رؤية بعض الزنجيات في البادية لكنه أشار إلى انعدام الفروق المبنية على أساس اللون .

" في المكان ذاته رأينا زنجيات إلى جانب نساء دوات بشرة بيضاء لم يبد لنا أي فرق بينهن لا في الهيئة أو في المراتب وقد أطلقن صرخات حين لمحننا ، كن متوحشات ضاحكات ، أما الرجال فقد أصروا على إبداء الاحترام " [2]

تبدو المقارنة بين حالة الرجال وحالة النساء في نصوص لامارتين في عدة أمكنة لكن تلك المرأة لا تلبث أن تتحول إلى وضيعة أخرى حين تصير زوجة للحاكم أو الأمير، فهي المتصرفة الآمرة والناهية .

يشير لامارتين إلى شخصية " عنترة " وعلاقته مع " عبلة " وذلك لإعادة صورة تلك المرأة ابنة الحاكم والتي أحبت عبدا متحدية كل الصعوبات ، والمشاكل التي اعترضتها ، لكن لامارتين يؤسس نظرته على أساس فني بحث فقد تمكن عنترة " من الوصول إلى عبلة " عن طريق الشعر.

هكذا تبدو صورة المرأة في رسائل لامارتين وسنحاول توضيح صورة الرجل في العنصر اللاحق .

---

(1) IBid p 254.

(2) IBid p 254.

ب/ الشخصية الرجالية : يتوزع الرجال في نصوص رحلات لامارتين بحسب مواقعهم الاجتماعية والسياسية ،والواقع أن الذي يقرأ الرحلات يستطيع التعرف إلى الطبقات التي ينتظم فيها الناس بصفة عامة والرجال بشكل خاص. فقد تحدث الشاعر عن الحكام وهم نوعان:

حكام عرب وممثلون سياسيون وقناصل أوروبيون جاءوا ثم استوطنوا البلاد العربية ، في البداية تبرز شخصية " أبو غوث " شخصية عربية ثرية تتحكم في مجموعة كبيرة من الناس يقول واصفا إياهم : " كنا محاطين بعدد من الفرسان أربعة بعث بهم إلينا حاكم القدس ، وحين نصبنا الخيم بالقرب من المقبرة التركية رأينا النساء وهن يقمن بعادة زيارة المقبرة والبكاء على الأضرحة ، وبعضهن كن يغرسن أو يضعن الزهور فوق القبور " (1)

إن لامارتين لا ينسى أن يشير في كل مكان إلى تنوع التشكيلة الاجتماعية للبلاد العربية ، فالشيوخ محترمون حتى وإن لم يكونوا ذوي مكانة سياسية أو حتى وإن لم يكونوا نبلاء على الرغم من أن كلهم يمتطي جودا أو يقود مجموعة من الأحصنة ، نلاحظ أن النبلاء يملكون عادة الفرس . يقول في مكان آخر : " أولئك الرجال لم تكن هيأتهم تدل على أنهم نبلاء هم فرسان وشيوخ عرب لا يتميز بعضهم عن بعض ، في سوريا ، وفي لبنان فهم يتميزون بفيزيولوجية قوية وعيون مثل عيون الصقر ، ولباس يوحدهم ويوحي بأنهم مقاتلون ." (2)

تتغير طريقة رسم الشخصيات بتغير الشخصيات ذاتها . اليهودي مثلا ليس مثل العربي ، أبواب داره مُشرعة تغدو وتجئ ، إهمال للتصفيف ولتجميل الأثاث المحطم ، كل ما في بيوت هؤلاء قديم وبال.

عندما ينتقل لامارتين إلى وصف الشيوخ الإسبان والإيطاليين يقول : " هؤلاء يملكون هنداما جميلا وجسدا طريا شكلهم يوحي بالهدوء وطريقة حديثهم الهادئة مع ضيوفهم تدل على أنهم ينحدرون من أصول حضارية تختلف عن التي هو فيها.

---

(3) IBid p 254.
(4) IBid p 254.

لامارتين شاعر حساس هو من المدرسة الرومانسية التي عبرت عن العواطف ، عواطف إنسانية لكنها لم تجامل الإقطاعية الطبقية ، ولهذا السبب فإن الإيحاءات والأحلام لم تنس شاعرنا في الحديث عن الطبقات الدينية والتصرفات الدوغمائية التي يقوم بها الفلاسفة ورجالات الدين المسيحيون خاصة ، ففي المسيحية حياة ومشروع مجتمع وتلك طبيعة لم تتغير خلال كل السنوات التي مرت على الناس في هذه البلاد يقول :" دفء القلوب وسماحة العقول لدى الرجال لم تتغير فهي محكومة بإحساس ديني يعشش في العقول ويسكن الأرواح ويحمل رسالة دينية مستلهمة من المسيحية مشفوعة بالفكر وبالفلسفة التي تميز كل رجل ينتمي إلى هذه الديانة عن سواه . وسواء أكان المسيح بن الله أم غير ذلك فإن المسيحية ديانة التاريخ والذكريات والآمال والمخيال ." (1)

الرجل عند لامارتين مقدَس لأنَه يسمو فوق كل شيء إذا التصق بالدين يقول لامارتين متساميا : " قد يكون المسيح في نظر الإنسان ابنا للإله أو ولدا لإنسان ما ، الألوهية هي المفترق الوحيد الذي يفصل بين شكل الوجود ; إنسانا ملموسا أو إنسانا معنويا. (2)

ينطلق لامارتين في حديثه هذا من الديانة المسيحية بوصفها ديانة الذكريات وديانة الأجداد وديانة الحاضر وديانة الرجال خاصة ، والمضمون العام يفي ببعض الأمور التي قد يحاول الشاعر إخفاءها عن القارئ البسيط لكن وعاء الكتابة الشعرية يتضح بمقاصد هذا الشاعر ;همُه الأول هو الحديث عن سحر المسيحية وجاذبيتها ووظيفتها في التمييز بين رجل بسيط ورجل ذي عقل وروح ، لعل الرجل في كل الحالات هو الشاعر ذاته هو المسيحي هو الشاعر هو الحساس هو الرجل .

تعَد رحلات لامارتين طريقة متميزة في الحديث عن الرجال تبدأ من القبطان وزملاء الرحلة وتمَر عبر شاتو بريان هذا الذي أعطى شعرية للمسار الرحلي ، ليس هناك ما يوقف الإنسان مثل ذلك الأسلوب المتأني الذي يسرد العادات ويعدد التاريخ وحقب المسيحية التي

(1) IBid p 277.
(2) IBid p 277.

مرت عليها مدينة القدس وبناها الرجال صخرة ثم صخرة وعمروها بالتحف الحضارية ، وزينوا جنباتها بالمسابح ومقابر الملوك التي تخبر عن قوتهم وقدرتهم على تطويع الطقس والطبيعة المتوحشة." (1)

(1) IBid p 259.

الخـــــــاتمة :

بعد هذه الرحلة مع لامارتين في المشرق الذي تعرفنا على أهم مواقعه ومميزاته الحضارية والجمالية وعناصره الثقافية والعقائدية ننتهي إلى جملة من النقاط :

✍ إن نظرة لامارتين مبنية على أساس محايد فهو لم يكن متعصبا لانتمائه الغربي لديانته المسيحية ولذلك لا نحس مغالاة في انطباعه أو شطوطا في رأيه فهو نموذج للرحالة الحقيقي .

✍ تتميز نصوص لامارتين في هذا الشأن بشعرية القول فنحن حين نقرأ كلامه لا نستطيع التميز بينه وبين الشعر ، كلامه مسبوك ، منحوت فيه حميمية المكان وجدلية الزمان وعنفوان الطبيعة.

✍ يصطفي لامارتين شخصياته بطريقة متأنية لأنها تعبر عن رأيه كما أنه يجعلها قادرة على تجلية الأسس الحضارية للوسط الذي تنتمي إليه وفي حالة بحثنا نستطيع القول إن لامارتين أفلح كثيرا في هذه المهمة فقسم شخصياته إلى شخصيات بدوية ذات طباع جلفة وشخصيات متحضرة غدت بعد الحياة التي أمضتها في صحراء وفي المرابع العربية متغيرة الطباع ، ونقصد بهذا أبو الياس وهي شخصية عايشت أزمنة متنوعة أي مند حملت نابليون على مصر ولم يفوت لامارتين الفرصة كي يشير إلى أنه قدم خدمات جليلة للغرب، كما أنه قدم خدمات مماثلة للشرق .

✍ وصف لامارتين الأمكنة التي تنقل فيها وحاول الإشارة إلى طبيعية كل مكان من خلال رصف المعالم الجغرافية المتنوعة : التلال ، الجبال ، الواحات ، الصحاري، كما أنه تحدث عن النافورة وعيون الماء وسراديب الجبال ودهاليز الكهوف وقد تسنى له ذلك من خلال كتابه المطول الذي درسناه.

✍ نشعر أن لامارتين يتلذذ كثيرا بوصف الشرق وحتى حين يتحول إلى المناطق الأخرى فإنه يعود إليه .

✍ أما من الناحية الأسلوبية فإن نصوص لامارتين مطبوعة بسمات متميزة مستخلصة من القاموس الرومانسي الذي يتضح بجواري الكلمات العذبة وقد سبقت الإشارة إلى إننا

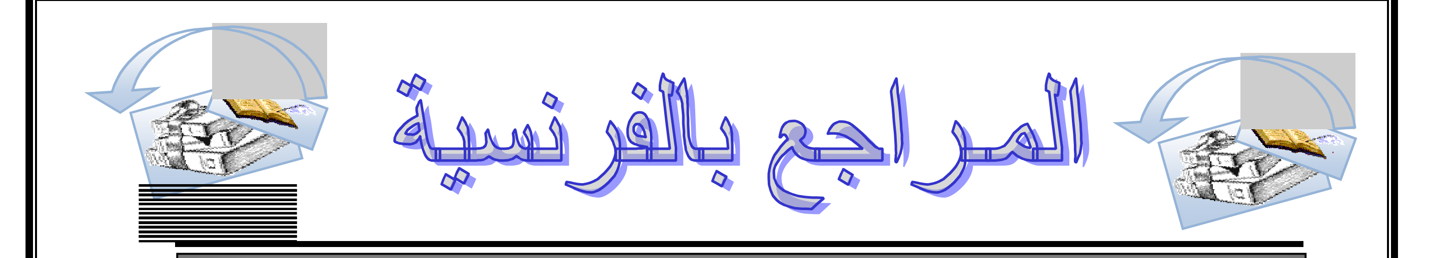
بالكاد نستطيع التميز بين شعره ونثره فكلاهما يعبر عن المشاعر ويرتهن إلى الطباع ويتعلق بالذات المكتومة التي تبحث عن البوح .

✍ حاولنا الموازنة بين كتابات لامارتين المتعلقة بالشرق وبين الكتابات الأخرى التي كتبت في الموضوع ذاته قد استنتجنا حيادية الشاعر بالقياس مع الآخرين.

✍ في الأخير نقول إن الأزمنة التي كتبت فيها هذه النصوص معلمة ومحددة بدقة وهي تمشي وفق طريقة كرونولوجية تبدأ من ألف وثمان مئة واثنان وثلاثون وتنتهي عند مشارق ألف وثمان مئة وثلاثة وثلاثين ، مما يشعر القارئ أنه بصدد نصوص تميل إلى التأريخ إلا أن الكلمات الجميلة المستعملة في تعبير تصرح بعكس ذلك .

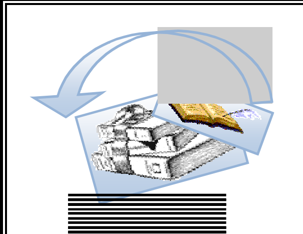
ومهما قلنا حول هذه الشخصية فإنها تبقى قابلة لأن تكون مدار بحوث أخرى لذلك نتمنى أن ينتبه الطلبة من بعدنا إليها ، وهي على الرغم من المؤتمرات التي تجرى حولها هنا وهناك لا تزال تغرى بالبحث لذلك نقول إن بحثنا لا يعد أن يكون محاولة حددت معالمها الأستاذة المشرفة وإن أخطأنا فمن أنفسنا ومن الشيطان وإن أصبنا فمن الله العزيز.

قسنطينة يوم ..../.../2011.

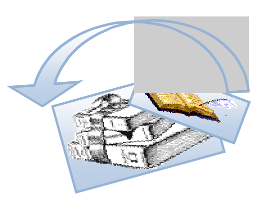


‼

1- Greimas et courtés, dictionnaire raisonne de la théorie du langage espace.
2- Le français expliqué, G.chappon R. vaquelin .AHATIER EDITEUR.
3- Le personnage du romain, in encyclopaldia universalis, txxL.
4- Michel Zerraffa le romain, inhirature et genne litterarres ducrot et todorov.op.cit.



المراجع بالعربية



!!

1- ابن جبير : مقدمة الرحلة بقلم عروة عمر ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، دت .2001.

2- البهى محمد : الفكر الإسلامي الحديث وصلاته بالاستعمار الغربي ، دار الفكر ، بيروت ، ط، د ت .

3- الجليند (محمد سيد) : الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة ، دار قباء القاهرة – مصر ، ط ، 1999.

4- الجندي(أنور) : الاسلام وحركة التاريخ ، مطبعة الرسالة ، ط ، 1968.

5- الجندي (أنور) : الفكر العربي المعاصر : مطبعة الرسالة ، د ط ، د ت .

6- الحاج (شاهين سمير) : اللحظة الأبدية دراسة الزمان في أدب القرن العشرين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان . ط1 ، 1980.

7- الحمد النملة (على بن براهيم) : الشرق والغرب منطلقات العلاقات ومحدداتها المركز الثقافي الغربي ، ط 2 ، 2005.

8- الخربطولي (على الحسيني) : المستشرقون والتاريخ الإسلامي .

9- الزيات(أحمد حسن) ، تاريخ الأدب العربي المعاصر ، دار النهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ط25 ، (دت) .

10- السويكرتي (محمد) : النقد البنيوي .

11- الشرباصي (أحمد) : التصرف عند المستشرقين : سلسلة الثقافة الإسلامية مطبعة نور الأمل ، ط ، 1966.

12- الندوي (أبو الحسن) : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط7 ، 1967.

13- الندوي (أبو الحسن) : الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة العربية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 1967.

14- بحراوي (حسن) : بنية الشكل الروائي : المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء المغرب ، د ط ، 1990.

15- ثامر (فاضل) : اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي والعربي ، المركز الثقافي والعربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1992.

16- جبير (يوسف) : تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ، مطبعة الشبان ، بيروت د ط ، 1929.

17- درويش (أحمد) : الاستشراق الفرنسي والأدب العربي ، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، د ط ، 2004.

18- زايد (عبد الصمد) : مفهوم الزمن ودلالاته في الرواية العربية المعاصرة ، الدار العربية للكتاب – تونس ، د ط ، 1988.

19- سمايلوفيتش (أحمد): فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر دار الفكر العربي – د ط ، 1998 .

20- شكيب أرسلان (الأسير) : لماذا تأخر المسلمون ، دار الفكر للجميع ، بيروت ، د ط ، 1969.

21- طالب (أحمد) : مفهوم الزمان ودلالاته في الفلسفة والأدب بين النص والتطبيق دار الغرب للنشر والتوزيع ، د ط ،2004.

22- عبد الفتاح (عاشورسعيد) : المدينة الإسلامية وآثارها في الحضارة الأوروبية ، دار النهضة المصرية ، د ط ، 1963.

23- فهيم (محمد حسين): أدب الرحلات ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والدب ، الكويت ، د ط ، 1989.

24- قصوري (إدريس) : أسلوبية الرواية مقارنة أسلوبية الرواية زقاف المدن لنجيب محفوظ ، عالم الكتب الحدف إربه ، الأردن ، ط1 ، 2008.

25- قنديل (فؤاد) ، أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة ، ط2 ، 2002.

26- كليطو (عبد الفتاح) : الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ط2، د ت .

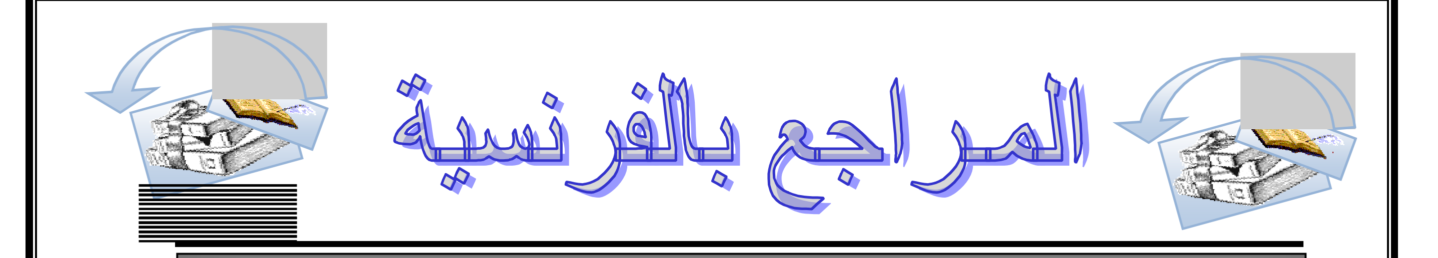
27- ماجدلين (شرف الدين) : بيان شهرزاد التشكلات النوعية لصور الليالي المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ، 2001.

28- محمود (حسن زكي) : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار الرائد العربي بيروت ، د ط ، د ت .

29- مرتاض (عبد المالك) : في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ـ د ط ، 1998.

30- مكي (الطاهر أحمد) : الأدب المقارن وأصوله وتطوره ومناهجه ، مكتبة الآداب القاهرة ، د ط ، دت .

31- ملاس (مختار) : النسيج الزمني في الرواية رجال في الشمس لغسان ....



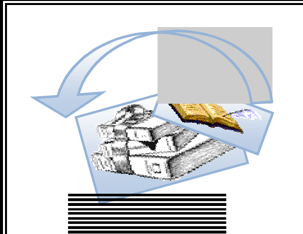
‼

1- Greimas et courtés, dictionnaire raisonne de la théorie du langage espace.

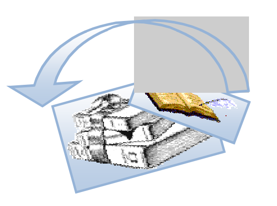
2- Le français expliqué, G.chappon R. vaquelin .AHATIER EDITEUR.

3- Le personnage du romain, in encyclopaldia universalis, txxL.

4- Michel Zerraffa le romain, inhirature et genne litterarres ducrot et todorov.op.cit.



المراجع بالعربية



!!

1- ابن جبير : مقدمة الرحلة بقلم عروة عمر ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، دت .2001.

2- البهى محمد : الفكر الإسلامي الحديث وصلاته بالاستعمار الغربي ، دار الفكر ، بيروت ، ط، د ت .

3- الجليند (محمد سيد) : الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة ، دار قباء القاهرة – مصر ، ط ، 1999.

4- الجندي(أنور) : الاسلام وحركة التاريخ ، مطبعة الرسالة ، ط ، 1968.

5- الجندي (أنور) : الفكر العربي المعاصر : مطبعة الرسالة ، د ط ، د ت .

6- الحاج (شاهين سمير) : اللحظة الأبدية دراسة الزمان في أدب القرن العشرين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان . ط1 ، 1980.

7- الحمد النملة (على بن براهيم) : الشرق والغرب منطلقات العلاقات ومحدداتها المركز الثقافي الغربي ، ط 2 ، 2005.

8- الخربطولي (على الحسيني) : المستشرقون والتاريخ الإسلامي .

9- الزيات(أحمد حسن) ، تاريخ الأدب العربي المعاصر ، دار النهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ط25 ، (دت) .

10- السويكرتي (محمد) : النقد البنيوي .

11- الشرباصي (أحمد) : التصرف عند المستشرقين : سلسلة الثقافة الإسلامية مطبعة نور الأمل ، ط ، 1966.

12- الندوي (أبو الحسن) : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط7 ، 1967.

13- الندوي (أبو الحسن) : الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة العربية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 1967.
14- بحراوي (حسن) : بنية الشكل الروائي : المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء المغرب ، د ط ، 1990.
15- ثامر (فاضل) : اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي والعربي ، المركز الثقافي والعربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1992.
16- جبير (يوسف) : تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ، مطبعة الشبان ، بيروت د ط ، 1929.
17- درويش (أحمد) : الاستشراق الفرنسي والأدب العربي ، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، د ط ، 2004.
18- زايد (عبد الصمد) : مفهوم الزمن ودلالاته في الرواية العربية المعاصرة ، الدار العربية للكتاب – تونس ، د ط ، 1988.
19- سمايلوفيتش (أحمد): فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر دار الفكر العربي – د ط ، 1998 .
20- شكيب أرسلان (الأسير) : لماذا تأخر المسلمون ، دار الفكر للجميع ، بيروت ، د ط ، 1969.
21- طالب (أحمد) : مفهوم الزمان ودلالاته في الفلسفة والأدب بين النص والتطبيق دار الغرب للنشر والتوزيع ، د ط ،2004.
22- عبد الفتاح (عاشورسعيد) : المدينة الإسلامية وآثارها في الحضارة الأوروبية ، دار النهضة المصرية ، د ط ، 1963.
23- فهيم (محمد حسين): أدب الرحلات ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والدب ، الكويت ، د ط ، 1989.
24- قصوري (إدريس) : أسلوبية الرواية مقارنة أسلوبية الرواية زقاف المدن لنجيب محفوظ ، عالم الكتب الحدف إربه ، الأردن ، ط1 ، 2008.
25- قنديل (فؤاد) ، أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة ، ط2 ، 2002.

26- كليطو (عبد الفتاح) : الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ط2، د ت .

27- ماجدلين (شرف الدين) : بيان شهرزاد التشكلات النوعية لصور الليالي المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ، 2001.

28- محمود (حسن زكي) : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار الرائد العربي بيروت ، د ط ، د ت .

29- مرتاض (عبد المالك) : في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ـ د ط ، 1998.

30- مكي (الطاهر أحمد) : الأدب المقارن وأصوله وتطوره ومناهجه ، مكتبة الآداب القاهرة ، د ط ، دت .

31- ملاس (مختار) : النسيج الزمني في الرواية رجال في الشمس لغسان ....